سمير اليوسف

سَماءٌ لا تَتَّسِعُ لِظِلِّي

نصوص

سَماءٌ لا تَتَّسِعُ لِظِلِّي

سَماءٌ لا تَتَّسِعُ لِظِلِّي

نصوص

سمير اليوسف

2025

• **سماءٌ لا تتسعُ لظلّي**

(نصوص)

• **سمير اليوسف**

• **طبعة أولى 2025**

• **الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: 0799677569**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2025/8/4383)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	**: سماء لا تتسع لظلي**
تأليف	**: اليوسف، سمير سعيد شحادة**
بيانات النشر	**: عمان: سمير سعيد شحادة اليوسف، 2025**
الوصف المادي	**: 182 صفحة**
رقم التصنيف	**: 819.9**
الواصفات:	**: / النصوص الأدبية / / الأدب العربي / / العصر الحديث/**
الطبعة	**: الطبعة الأولى**

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

• **(ردمك): 978-9923-0-1896-5** ISBN

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمَح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبَق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

مقدمة

ليست هذه النصوص صفحات تقرأ، بل كائنات رمزية تتنفس في حيزٍ لا يعترف باليقين، وتخطو بين الكلمات كما يخطو الظل في متاهة الضوء. هنا، في هذا الديوان، لا نقرأ قصائد بقدر ما نعبر طقوسًا من الكشف والإنمحاء، من التجلّي والانكسار، حيث يغدو النصُّ مرآةً مائلة، لا تعكس الوجوه بل تعيد صياغتها بلغة الغياب والاحتمال.

لقد اخترت أن أتحرر من جاذبية المباشر، وأنحاز إلى الأسلوب الرمزي لا بوصفه زخرفة بلاغية، بل فلسفةً للكتابة، وبنيةً جماليةً تُقاوم الابتذال، وتمنح المعنى طقسًا من الغموض المضيء. فالنصوص هنا ليست تفاسير لما نعرف، بل انحرافات متعمدة عن المسار، تهدف إلى إرباك المعنى كي تولّد دهشةً لا تشبه الإدراك، بل تلامسه كما يلامس العطرُ جرحًا قديمًا.

الرمزية التي تكتنف هذه القصائد ليست قناعًا، بل انكشافٌ من نوع آخر؛ انكشافٌ لما لا يُقال، لما يتسلل بين الصمت والمعنى، لما يُكتب لا ليُفهم بل ليُؤسِس شعورًا يسبق الفهم. ففي فضاءٍ شعريّ كهذا، تتحول المدينة إلى أسطورة، والوطن إلى رعشة، والغربة إلى كيانٍ شبحيّ يهمس في خاصرة القصيدة. كلّ شيء

يُستعار من اللازمن واللامكان، حتى يصير الكونُ مجازًا، وتغدو التفاصيل اليومية مداخلَ لعوالم سريالية، تُشبه الحلمَ حين يستيقظ دون أن ننتبه.

الأسلوب الرمزي الذي يتلبّس هذه القصائد، هو احتجاج على تشظي الواقع، وتمردٌ على المعنى الواحد، ومحاولةٌ لترويض الفوضى عبر شبكةٍ من الصور، تتشابك لتخلق عالمًا جديدًا: عالمًا تسكنه ظلالٌ بلا أجساد، وأسئلةٌ بلا إجابات، وخرائط لا تقود إلا إلى أبوابٍ مغلقةٍ على المعنى. هنا لا أنتمي إلى جغرافيا، بل إلى وجعٍ يتنقّل في جسد اللغة، وإلى منفى يتّسع كلما ضاق الوطن.

«سماء لا تتّسع لظلّي» ليس عنوانًا لنصّ، بل موقف وجودي. فالظل، رمز الذات في لحظة انفصالها عن الجسد، لا يجد سماءً تحتضنه، لأنه أكبر من هندسة الفقد، وأعمق من أن يُحدَّه المكان. والسماء، في هذا النص، ليست مجرّد فضاء، بل استعارة للممكن الذي لا يتحقق، وللحب الذي يظلّ سؤالًا، وللوطن الذي يصبح سؤال هوية لا جواب له.

هذا ديوان لا يُفسَّر، بل يُعاش. تُقرأ نصوصه كما تُقرأ الأسطورة: لا لفهمها، بل لاكتشاف أنفسنا من خلالها. لأن الشعر هنا ليس بيانًا، بل رعشة. ليس تكرارًا لما نعرف، بل قفزة في المجهول... حيث كلّ قصيدة تمشي على حافة الهاوية، وتكتبنا من جديد.

وهكذا، يُغلق الديوان أبوابه لا ليُنهي الرحلة، بل ليتركها مفتوحة على احتمالات التأويل. كل نصّ فيه كأنّه مرآة تنكسر عمداً كي لا يرى القارئ وجهه، بل يرى ما وراءه. إنّه كتاب لا ينام على رفوف المعنى، بل يسهر في مكتبة الغيم، يتقلب بين حلمٍ لم يُروَ ويقظةٍ بلا شهود. من يفتحه، لا يقرأ كلماتٍ، بل يستدعي أرواحًا، ويُنصت لصمتٍ يضيء... كأنّ الديوان كائنٌ هاربٌ من الأسطورة، يهمس لك وأنت تمضي في عتمته: «ليس المهم أن تفهم... المهم أن تتورّط.»

سمير اليوسف

آب ٢٠٢٥

مَفاتيحُ لا تَصدَأ

في خاصرةِ الخرائطِ صمتٌ،
وفي الحُلمِ صخرةٌ تتكئُ على جدارٍ من نور،
مدينةٌ تُخفي وجهها في وشاحِ النبوءة،
تمشطُ جدائلها بزيتِ البدايات،
وتنثرُ في دروبِ الغيمِ أسفارَ من مرّوا،
ومن مرّوا، كانوا خِفافًا كأنّهم صلاةٌ مؤجَّلة.

**

لا تُناديها الأسماء،
فهي الاسمُ الذي خُلق قبل الحروف،
هي المدى الذي لا يقوى عليه سهم،
ولا يحتمله حنين،
مدينةٌ لا تمشي، بل تُقاد على أكتافِ الأسطورة،
كلُّ حجرٍ فيها شاهدٌ،
وكلُّ شاهدٍ قبرٌ مقلوب.

**

الريحُ هناك تهمسُ بما لا يُقال،

تنسجُ عباءةً من دموعِ الأنبياء،

ومآذنُها...

تُنادي الصمتَ ليقيم الصلاة،

فيمتثلُ الوقتُ،

ويُقسّمُ أيامَه على أنغامٍ مقدّسة،

وسَجداتٍ تائهة،

الكتابة الأولى كانت تسيرُ حافيةً في دربِ الزيتون.

**

ذات جُرح،

دخلتْ خيولٌ لا تحفظُ الوصايا،

كأنها لم تسمعْ عن المائدةِ الأخيرة،

ولا عن الزيتِ الذي يشفي،

علّقتْ الليلَ على أجفان الضوءِ،

وغسلتْ وجهَ المدينةِ بنيرانٍ تُباركُ القتل،

ثم مضتْ،

تركتْ البابَ مكسورًا،

والندى في العيونِ مجروحًا.

**

وفي الغدِ الذي يُشبهُ القيامة،

عادَ الفارسُ،

لم يكن يشبهُ الرعاة،

ولا يكتبُ وصاياه على الرمل،

في يده سيفٌ يعرفُ الحنين،

وفي عينه دمعةٌ لم تسقطْ،

حملَ المفتاحَ كأنه ميثاقٌ،

ودخلَ من بابٍ لم يُقفلْ،

فتبسّمتِ الحجارةُ،

وارتدتْ المدينةُ خمارَها.

**

لكنّ الزمنَ لئيم،

يعودُ من خلفِ الستائر،

يُراودُ المدينةَ عن صبرِها،

ينقّبُ في ذاكرةِ الأرصفة،
يزرعُ قُبَلاتٍ مسمومةٍ على خدِّ الجغرافيا،
ويقولُ:
«هذه الأرضُ لي».

**

وكلّما استفاقتْ من حُلمٍ،
سقطتْ في كابوسٍ جديد،
تتشظى قبابُها في المرايا،
ويتلاشى النورُ على أسوارها،
يُعادُ تشكيلُ الجرحِ بلونٍ آخر،
مرّةً بالبارود،
ومرّةً بالأسلاك،
وأخرى بالحكايةِ التي تُسرقُ من فمِ الرُّواة.

**

يا وجعَ الملائكةِ في مدارِ الطين،
كيفَ يحتملُ الندى هذه الخيانات؟
كيفَ للغصنِ أن يظلّ أخضر،

وقد مرّتْ عليه جيوشُ الطين،

والنفي،

والتشريد،

وقنابلُ لا تحملُ اسمًا سوى «احتمال»؟

**

هي هناك،

بينَ التكوينِ والخراب،

بينَ التوراةِ والإنجيلِ والآذان،

تخيطُ وجعَها بخيوطٍ من دعاء،

وتُطرّزُ ظهرَها بندبةٍ تشبهُ وطنًا.

**

وفي ليلِها،

ترفعُ عينيها إلى قمرٍ غريب،

تسأله:

هل من مخلّصٍ آخر؟

هل سيعودُ الحنينُ على هيئةِ سيف؟

هل تحملُ الغيومُ مفاتيحَ العودة؟

فيردُّ الصدى:

«المدينةُ هي التي تخلقُ مخلّصيها».

**

ثم تصمتُ،

تجلسُ على حافةِ الانتظار،

تقرأُ كتابَ الرمل،

وتبتسم،

فربما يأتي الغدُ،

وربما تبقى مفاتيحُها

تنبضُ في رقابِ مَن لا يزالون يفتحون النوافذَ للغيم.

مُدُنٌ لا تَلِدُ أَسماءَها

في تجاويف الوقت التي لا تضيئها الشمس،

في الهوامش الميتة من الخرائط،

تُقامُ أماكنٌ

لا يُولدُ فيها أحدٌ،

لكنّ الجميع يصلها في غفلةٍ من الذاكرة.

أماكنُ

تتنفّسكَ قبل أن تدخلها،

وتجردك من كل شيءٍ

إلّا من إحساسٍ خفيفٍ بأنك كنت هنا

قبل أن تُولد.

**

هناك،

لا يوجد طريقٌ واضح،

كلُّ ما هنالك

جهاتٌ تستبدل مواقعها كلَّ صباح،

ودروبٌ

تدور كمن يبحث عن نواةٍ نُسيَت قبل أن تُخلق.

**

البيوت لا أبواب لها،

الجدرانُ تنحني على نفسها

كأنها تُنصت لنداءٍ داخلي،

والنوافذ

تطلُّ على فراغٍ يتذكّرك دون أن يراك.

**

الهواء بلا رائحة،

لكنه مشبعٌ بندوبٍ لا تُرى.

**

الوجوه هناك

مكتملةٌ،

لكنّها بلا ملامح،

تتحرّك بثقل حلمٍ قديم،

وتبتسم...

كأنّ الابتسامة صدى لرؤيا سكنت فيهم قبل الذاكرة.

**

لا أحد يسأل،

ولا أحد يجيب،

فالكلماتُ تُقال

لتُنسى،

والحروف تُنطق

لتذوب في الصدى.

**

وحين همستُ بشيءٍ ما

لم يُعِره أحدٌ انتباهًا،

لكنّ الأرضَ اهتزّت

كأنها تذكّرت جملةً كانت قد نسيتها من زمن.

**

رأيتُ ظلاً لا يعود لأحد،

يمشي على الجدار

ويجمع الوقتَ من عيون المارة،
يغسل الذكريات
بماءٍ خافتٍ كأثر حلمٍ
لا لون له ولا صوت.

**

على التلّ القريب
الذي لا يصعد إليه أحد،
كانت هناك كتلةٌ حجرية
تتشقّق كلَّ فجر،
ثم تُرمّم نفسها قبل أن يراها الضوء.
قال لي الصمت
«هنا تكتب الحياة نفسها،
كلّ ليلة،
لكنها لا تذكر الحروف».

**

سألتُ الريحَ: «مَن أنا؟»
فأجابتني بصوتٍ يشبه دموعًا متحجّرة،

تتلوى ضحكةً خافتةً بين نبضات الصمت،

تقول:

«أنتَ وهمٌ يسيرُ على حدود الذاكرة،

ظلُّ سؤالٍ لا يُجاب،

ونبضةُ فرحٍ ترفض أن تموت.»

**

المكانُ لا يعترف بالوقت،

فالزمنُ هنا ليس نهرًا،

بل حلقةٌ

تدور دون أن تلتقي بحوافّها.

اللحظةُ تُكرر نفسها

كما لو أنّ الوجودَ

هو فقط محاولةٌ دائمةٌ لأن يُولد من جديد

دون ذاكرة.

**

هناك،

لا يُعاقبك أحد على النسيان،

لأنّ لا أحد يملك ذاكرة،

ولا أحد يُكافَأ على التذكّر،

لأن الحقيقة تُدفن تحت ظلٍّ كالسراب،

لا تثبت إلا في قصص لا تُروى،

ولا تُلمس إلا بأطياف الهَجْر.

**

الومضاتُ الصغيرةُ

كانت تلمعُ في العين

كأنها تعود من زمنٍ بلا ذاكرة،

رذاذٌ من سراب،

أثر على الحائط،

لمسة على الخشب الباهت،

كلها كانت أناشيدَ

لم يكتبها أحد.

**

ثم بدأتُ أتحوّل،

لم أعد أحتاج إلى اسم،

ولا إلى جهة،

ولا إلى ماضٍ يقف خلفي حارسًا،

كلّ ما كنت أحتاجه

هو أن أتنفّس دون أن أفسّر،

أن أرى دون أن أسمّي،

أن أكون... فقط أكون.

**

وفي لحظةٍ

لم يكن لها بداية،

ضحكتُ.

ضحكتُ حتى امتلأ وجهي

لأنّ الأشياء كلها

غدت بسيطةً حدَّ الغرابة،

وغريبةً حدَّ السكينة.

**

تلك الضحكةُ

لم يكن لها سبب،

لكنّها تركتني خفيفًا،
كأنّني كنت أحمل دهورًا من الأسئلة
في صدري
ولم أكن أعلم.

**

والآن...
حين عدتُ،
لا شيء في العالم تغيّر،
لكنّني
كلّما نظرتُ إلى ظلي،
أسمعه يسألني:
هل أنت هنا... أم ما زلت هناك؟

**

وأنا،
كلّما حاولتُ الإجابة،
أضحك.
وكأن الصمتُ وحده، يعرف الاسمَ الذي فقدته.

ظِلُّ السُّؤال

كان النهارُ واقفًا

على عكّازٍ من دخان.

الريحُ تعبرُ المدينةَ

بقدمٍ واحدة،

والأبوابُ لا تُغلق،

إنما تتثاءب.

في زوايا الضوءِ

جلس الصدى يتهجّى الوصايا،

فيما العتمةُ

تحوكُ عمامةً من الغبار

وتدسُّها في جيب الغيم.

تقدّمَ النورُ مرتديًا وجهـًا من ذهب،

وتكلم،

لكن فمه كان مليئًا بالحجارة المصقولة،

وعيناه تنظران إلى مكانٍ أعلى

من العيونِ

ومن الجدران

ومن الحكايات.

قالت النوافذ:

من يخطب فينا؟

الريح؟

أم الحذاء الذي لم يلامس الطين قط؟

وفي الزاويةِ،

كان هناك وجهٌ بلا لون،

يرسمُ بسوطٍ من شمس

بابًا

يُفتحُ من الجهة الأخرى للألم.

رفع إصبعه،

لكن لا أحد نظر.

رسم دائرةً

ثم سقط داخلها.

الذي صرخ

لم يكن الصوت،

بل المدى

حين انشقَّ على نفسه،

وبكى بلا دموع.

**

ظلّ السؤال

لم يُولد،

لكنّه كان يُقنع الممرات

أن تُبلّل الإسفلت

بندوبٍ تشبه المطر.

كان يتسلّل

كقطرةٍ فقدت وجهتها

في جيبِ مسافرٍ

تخلّى عن اسمه

ليصير صدىً للمجهول.

يمضي بقدمٍ واحدة

وصوتٍ متكسّرٍ

يُراوغ فمه،
يتطلّعُ نحو الجهات الأربع
كأنّه يشكّ في هندسة العالم،
ويقبض الريح
بكفٍّ لا تتذكّر شكلها،
ثم ينثرها
على صفحة الغيم،
كي تبكي السماء
من ألمٍ
لم يصفْهُ أحد،
ولم يسألهُ أحدٌ عن السبب.

**

وحين يمرُّ تحت سقفٍ
نسِيَ استقامته،
يخلّف وراءه ظلالًا مترددة
وخطىً تجهل اسمها،
تهوي على الحجارة

كصلاةٍ بلا قبلة،

أو كنجمةٍ

أضناها انتظارُ قارئٍ لم يأتِ.

**

وفي الزاويةِ القصيّة من الزمن،

تجلس الغيمات

على مقاعدَ خُذلتْ،

وتبكي ...

لا من حزنٍ عرفته،

بل من وجعٍ

بلا هوية،

بلا جغرافيا،

بلا كفنٍ

يصلح لوداعٍ لائق.

**

الماء كان يبكي في مكانٍ ما،

لأنه عجز عن غسل اليدين.

والظلُّ كان يطارد نفسه

في المرآة.

لكن المرآة

لم تكن هناك.

**

الخشبُ الذي نَصَبَ عظامَهُ

في منتصف الحقل،

تذكّر أن جذوره

لم تتعلّم الإنصات.

وأنّ من يعلو

ربما

ينسى ما يعنيه أن يكون تحت السقف.

**

شجرةٌ صغيرةٌ

نامت في فمٍ من نار،

وصحَتْ

تسألُ الحطبَ

عن معنى الولادة.

**

وفي اللحظة التي كُسِر فيها الجرس،

وانحنت الظلالُ

تفتّش عن اسمها،

كان هناك أحدٌ

يكنسُ

صوتًا

لم يُنطَق بعد.

**

وهناك،

في زاويةٍ خفيّةٍ من القصيدة،

جلس طفلٌ

يقرأ على تراب الوقت

سؤالًا:

هل كان الحطب واعظًا؟

أم أن النارَ كانت المستمعة؟

**

أما هو – ظلّ السؤال –

فكان يتقدّم

كمن يخترق مرآةً

أُفرغتْ من المعنى،

يطأ الفراغ

كأنّه خبيرٌ بصمتِ الممرات،

ويعرف أن الطريق

لا يُعيد صدى القدمين،

وأن كلّ بابٍ

إن فُتح،

لا يُطلُّ

إلّا على حجرٍ

يسأل الوردة:

لماذا لم تذبلْ بعد؟

نَبضُ الرِّيحِ في جِدارِ الوَهْمِ

كانَ الهواءُ يُقلِّبُ الظلالَ المُتأرجحةَ
كما لو كانت أوراقًا جافَّةً،
والزمنُ يَشحَذُ سكينَهُ في الظلِّ،
بينما الظُّنونُ تَقِفُ في صُفوفٍ مُتراصَّةٍ،
تُحاوِلُ أن تَلمَحَ ما لا يُرَى،
وتَقبِضَ على ما لا يُمسَك.

**

قالَ الصوتُ المُتوارِي خلفَ ستارِ الزمنِ:
ارفَعْ يدَكَ إنْ شِئتَ أن تُرَى،
لا لِتَأخُذَ، بل لِتُعَدَّ في الإحصاءِ.
فَرَفَعتُ يدي...
لا لأنَّني أردتُ شيئًا،
بل لأنَّ الرِّيحَ مرَّتْ من هناك،
وأرادتْ أن تَنسُجَ من خفَّتِها عِباءةً على جَسَدي.

**

بعضُ الظِّلالِ أطوَلُ من أصحابِها،
وبعضُ الخُطى تُدوِّي أكثرَ من أقدامِها،
هكذا بدأتِ الأصابعُ تتبارى،
كأنَّها تَنتزعُ الفكرةَ من قُبَّةِ هشَّةٍ،
وتُغَنِّي للمَجهول.

**

الوَعدُ لم يكنْ سوى نَسمةٍ،
بل قُبلةً مُعلَّقةً في الهواءِ،
كلُّ يدٍ تَمتدُّ نحوَهُ،
تَجِفُّ بَعدَها أكثرَ...
كأنَّها تَسرِقُ نبعًا،
ولا تَجِدُ إلّا سَرابَ ماءٍ
في كأسٍ زُجاجيٍّ مقلوبٍ.

**

مَن قالَ إنَّ القامةَ تُقاسُ بالسَّاقين؟
هُناكَ مَن يَقِفُ فوقَ نَفسِه،
ويَظنُّ أنَّه ارتفَعَ،

لكنَّه لم يُدرِكْ أنَّه يَسقُطُ ببطءٍ
داخلَ وَهمٍ أملسَ كبحرٍ بلا مَوجةٍ.

**

القفزُ إلى الأعلى لا يَتَحدَّى الجاذبيَّةَ،
بل يُوقِظُها من نَومِها العَميقِ،
وحينَ يَقِفُ الجمعُ على المَقاعِدِ،
تُصبِحُ الأرضُ هي الأُخرى مَقعدًا،
ويَجلِسُ العقلُ حائرًا
على حافَّةِ تَوازُنٍ هشٍّ.

**

أنْ تَضعَ أساسًا راسخًا في الأسفلِ،
ليس لأنَّكَ تُحسِنُ الحِسابَ،
بل لأنَّكَ تَفهَمُ أنَّ القاعَ ليسَ جريمةً،
بل هو العَمودُ الفقريُّ للهَرَمِ.

**

الرأسُ لا يُطِلُّ من الأعلى إلّا حينَ يَحمِلُهُ كَتفانِ،
والفَوزُ ليسَ أن تَصِلَ،

بل أنْ تَجِدَ مَن يَنتَظِرُكَ هُناك،

ويُصفِّقَ لكَ بصَمتٍ.

**

وحينَ تَكدَّسَتِ الأجسادُ في دوائرِ النُّهوضِ،

وصَعِدَ الرفاقُ على أكتافِ الكلماتِ،

جاءَ الصوتُ الأوَّلُ من جديدٍ،

يَضحَكُ دونَ أسنانٍ،

ويَجمَعُ الجائزةَ من بينِ الأملِ والعَرَقِ،

ثمَّ يَمضي...

**

في آخِرِ المَطافِ، أدركْنا أنَّ الهواءَ

ليسَ سِلعةً تُباعُ أو تُشترى،

إنَّهُ نَبضٌ حيٌّ يَتنفَّسُ بلا ثَمنٍ،

يُعانِقُنا، يَمرُّ بنا،

لكنْ لا يُمسَكُ، ولا يُؤسَرُ في زُجاجةٍ.

**

ولم يَكنِ الدَّرسُ في القفزِ إلى الأعلى،
بل في ذلكَ الهُبوطِ المُتَأنِّي،
في تَلامُسِ الأرضِ بِحَذرٍ،
حَيثُ تَكتَمِلُ الرؤيةُ،
ويُولَدُ الفَهمُ من انْحِناءَةِ النُّزولِ.

**

والرَّمزُ؟
كانَ مُجرَّدَ وَهمٍ كَتبَهُ على ورقِ الحُضورِ،
ومَضى،
يُدَخِّنُ ذَكاءَهُ على الرَّصيفِ،
ويَبيعُ لنا مَرَّةً أُخرى
أحلامًا مُعلَّبةً
باسمِ: الخِبرةِ.

**

لا شيءَ يُمنَحُ هُنا...
حَتَّى الخُسارةُ
تأتي بفاتورةٍ مَخْتومةٍ.

**

القِيادةُ؟

ليستْ في اليدِ الأعلى،

ولا في الصُّعودِ على الأكتافِ،

بل في أنْ تَعرِفَ

مَتى تَنزِلُ دونَ أنْ تَسقُطَ،

ومتى تَصمُتَ

لِيَتَنفَّسَ الجَذرُ فوقَ التُّربةِ.

**

نهايةٌ؟

لا...

إنَّها بِدايةُ الصَّفِّ الأوَّلِ

في مَدرسةٍ

اسمُها:

«أنتَ وَحدَكَ لا تَكفي،

لكِنَّكَ البِداية.»

وَشمُ الذّاكرةِ على شاطِئِ النَّدَم

تتمايلُ الظلالُ على حافةِ اللحظة،
كأنها حكايا مهشمة في مرآةٍ غائمة،
تُسرّبُ أنينَ الصمتِ بين أوتارِ الوجود،
وحيثُ النورُ ينحني تحت وطأةِ تساؤلاتِ النفس.
هنا، في ملتقى الأزمان المهجورة،
تُباعُ أرواحُ القراراتِ على رفوفِ الخيال،
تفوحُ رائحةُ الغدرِ من ثنايا التسرع،
في رقصاتٍ عمياءٍ تفتكُ بالثقة.
لا تصدق السرابَ الذي يلمعُ في عينيك،
هو خدعةُ الجسدِ ومخالبُ الضيق،
تلك الأصواتُ القديمةُ،
التي تعانقُ ضفائرَ الحكمةِ المنسية،
تهمسُ عن قفزاتِ الأرواح فوق حبالِ الرغبة.
كم مرةً قُصفت جناحا الفرحِ في مهبّ التهور؟
كم ارتعدت جدرانُ القلب تحت وطأةِ الصمت؟

في بحيرةِ القراراتِ العميقة،
يزدادُ حجمُ المجهول،
وتنبثقُ أصابعُ الخوف من أعماقِ الظلام.
حينَ يسقط القناع،
وتتكشفُ تعاويذُ الندم،
تتلوى الكلماتُ كأفاعي الحكمة،
تطلبُ مأوى في عقولٍ لم تُجرب،
تختارُ السفرَ عبر النسيان.
لا طيفَ ينجو من متاهاتِ السرعة،
ولا ريحَ تُعيدُ ما بعثرته من مفاتيح،
القرارُ... نهرٌ مغطّى بالضوء،
لكن قاعهُ يهمسُ بأسرارٍ لا تُقال،
كأنّ الصفاءَ مرآةٌ مائلة،
تُخفي انحناءاتِ الهاوية.

**

حينَ تتلاشى الأضواء،
وتُصبحُ القاعاتُ خاويةً من الهمس،

تُبحرُ الروحُ بين أرصفة الأسئلة،

تنتظرُ،

لا لعاصفةٍ، ولا لهدوءٍ،

بل لرقصةٍ جديدةٍ بين الضباب،

حيثُ لا شيء يُقال،

وكل شيء يُحتمل.

حينَ يُزهِرُ العَقلُ في كَفِّ الإنسان

إلى الذين آمنوا أن رفعة الإنسان تبدأ من فكرة، وأن الحضارة تُبنى على أكتاف المعرفة، لا على ضجيج الأضواء.

يا من تغزلُ أحلامَك من شُعاعِ شمعةٍ ذائبة،
ويزرعُ في فمِ المساءِ نداءً لا يُجاب،
هل سألتَ النهار: لماذا تتأخّرُ شموسُنا؟
هل تساءلتَ: كيف تُبنى القلاعُ من وهمٍ،
بينما تهوي الحضاراتُ حين نُهملُ السلالمَ إلى النور؟
في قبو الذاكرة،
تُطفأ شموعُ الفكرة،
ويُسدلُ الستارُ على مسرحيّةِ الفجرِ الغائب،
فنصفّقُ لطيفٍ يرقص،
ولا نسمعُ لمن يكتبُ معادلةَ النجاة.
شعلةُ الوعي ليست سلاحًا،
بل هي قُبلةُ الحياةِ على جبينِ الزمن،

هي نايُ الإنسانِ حين يتكلّمُ الحجر،
هي بوصلةُ السفينةِ في محيطِ العدم،
هي أن ترى الغيمَ مشروعَ مطر،
لا مجردَ ظلٍّ عابر.
سرُّ النهوضِ
أن تصنعَ من الذرةِ سلّمًا،
ومن السؤالِ جناحين،
أن تُعانقَ المستقبلَ دون أن تُديرَ ظهركَ للتاريخ،
أن تنقشَ اسمكَ لا على جدارٍ مكسور،
بل على ذاكرةِ الكوكب.
حين يتربعُ ضوءُ الحكمة على عرشِ الإشراق،
تنسابُ الطائراتُ كهمسِ الريحِ بلا صخب،
وتُزهِرُ الفكرةُ في حقولِ اللامعقول،
وينحني الرادارُ أمامَ عبقريةِ الفجر،
وتصغي الأكوانُ لعزفِ أناملِ الابتكار،
لا لأصداءَ أهازيجِ البهرجة.
وحين ننسى،

نُشيدُ قلاعًا من ورق،

نلوّنُ الهواءَ بالأغاني،

ونرسمُ المجدَ في ملاعبَ مُغبرة،

ونعلّقُ الآمالَ على كتفِ لاعب،

ونُقصي الذي اخترعَ الضوء.

أيّها الذي يهمسُ للحياة: «أنا ها هنا»،

انظرْ إلى نفسكَ في مرآةِ الحرف،

هل ترى صانعَ نورٍ كان يُمكن أن يكون؟

هل تسمعُ في أعماقك موسيقى الاحتمال؟

كن مشروعَ شمعةٍ لا تنطفئ،

إن لم تكتبْ معادلةً،

فاكتبْ للحالمين بابًا،

وإن لم تُطلقْ قمرًا في السماء،

فارفعْ بصرك كي تُلهمَ آخرين.

المعرفةُ أن تتصالحَ مع المجهول،

أن تُراودَ الغيبَ عن فكرة،

أن تحفرَ في صخرةِ الجهلِ جدولًا،

أن تُشعلَ في كفِّ طفلٍ شمعةً،

وتقول له: «أنتَ النورُ لا الظل».

النهضةُ ليست صوتًا في نشرةٍ مسائيّة،

ولا تغريدةً تصعدُ كالعاصفة وتذبل،

إنها قلبٌ يخفقُ في عقلٍ مفتوح،

إنها يدٌ تمسحُ الغبارَ عن كتاب،

وتنثرُ البذورَ في حديقةِ الغد.

إذا مشيتَ في طريقِ المبحر إلى النور،

فاحملْ حقيبةً من الأسئلة،

وارتدِ معطفَ الدهشة،

واسكنْ في بيتٍ من أفكار،

وافطرْ على حلمٍ جديدٍ كلّ صباح.

فمن يزرعُ فكرة،

يُثمرُ وطنًا.

ومن يُشعلُ عقلًا،

تضيءُ أمة.

لا تكن ظلًا للّهو...

بل أثرًا في خريطة النهوض.

اصنعْ لكَ عرشًا في محراب المعرفة،

واتركْ للعابرين ساحةَ الغناء.

يا ابنَ الأمّةِ العريقة،

انهضْ...

فالكونُ لا ينتظرُ من ناموا على حكايا المجد،

بل من أوقدوا في ليلِ الغفلةِ

مصابيحَ الفكرة،

ومشَوا على جمرِ السؤالِ

نحو صبحٍ لا ينام.

هامِشٌ على دَفتَرِ الغَيم

«صوتٌ ينبتُ على تخوم التفاوت، حيث تتقاطع الظلالُ
بين جدارٍ بلا مرآةٍ وقمرٍ لا ينعكس.»

**

دعيني على حافّةِ الشكِّ واقفًا
كما يقفُ الجسرُ بين ضفّتين،
واحدٌ من ماءٍ..
وواحدٌ من نار.
أنا ابنُ الترابِ الذي
ينبتُ الحلمَ من قشّةِ القهرِ
والرغيفِ اليابس،
وما ركَعتُ
لغيرِ الله
ولا جلستُ يومًا
إلا على ظلِّ كفّي!

**

أنتِ...

يا ابنةَ الضوءِ المنثور على الحرير،

يا من تتكئُ الخيولُ على جدائلها،

وتنعكسُ الألحان في خطواتها،

لماذا تمدّين يدكِ

نحو رجلٍ تتكئ الحياةُ عليهِ

كالنهرِ المقطوعِ عن البحر؟

أأنا جديرٌ

بأن أُعلّق في عنقكِ

قلادةً من العوز؟

أن أُهديكِ

قُبلةً مغسولةً

بعرقِ الأيام؟

أن تبيتي على قصيدتي،

بدلَ مخملِ وسادتكِ؟

أنا لستُ إلا

همسَةً أفلتَها عارفٌ ضلَّ الطريق،

في مساءٍ نسيَ أن يستفيق،

واستقرت في كتابِ نبوءةٍ

نسيَ سَدَنة الغيب أن يقرؤوه

**

تقولين لي:

«سأشقى بدونك

وأنا أملك قوتَ غدي...»

فأُجيبكِ:

وما نفعُ الغدِ إن جفَّت ينابيعُ اليوم؟

تريدينني كما أنا؟

حفاةَ القلبِ،

عاريًا من المجاز؟

تحت سقفٍ مهترئٍ من الرجاء؟

إذن...

دعيني أخلع عني ما تبقّى

من خيوطِ الكِبرياء،

وأدخل غرفتكِ

كما يدخلُ المتصوّفُ

حضرةَ الدهشة.

**

لكن..

أخبريني،

هل جرّبتِ يومـًا

أن تستلقي على حجرٍ

وتناديه: «كن لي سريرًا»؟

أن تغني للسكوتِ

وتسميه موسيقى؟

أن تكتبي على الورقِ الخالي

«أنا مكتفية»؟

أنا لا أملك شيئًا

سوى قصائدي

التي تنامُ في جيبي

كالأطفالِ الجائعين،

يهمسون:

«متى نأكلُ يا أبي؟»

وكلُّ ما أقدر عليه

أن أحملَكِ

إلى عالمٍ لا يُقاسُ بالذهب،

بل بنبضِ الأصابعِ

حين تلتقي دون موعد،

وبلحظةِ صمتٍ

تصيرُ وطنًا.

**

تقولين إنكِ لا تبحثين عن تاجٍ من ضوء الغير،

ولا عن عناقٍ بلا ذاكرة

فمن أنا؟

أنا الطينُ إذا أحبّ،

يصيرُ مرآةً للغيم!

أنا الفقرُ إذا كتب،

يسرقُ من الأبديةِ ظلَّ المعنى!

أنا الذي

لو جلس معكِ في غرفةٍ مغلقة،
يصيرُ الكونُ كلَّهُ
جالسًا معنا.

**

أفكّر كثيرًا...
كيف يمكن للثريا
أن تعانق شمعةً لا زيتَ لها؟
كيف ترفعينني
وأنا لا أملك سلّمًا
إلا الكلام؟
لكن..
حين رأيتكِ تبكين
لأنني تردّدت،
عرفتُ أن قلبكِ
ليس مصرفًا...
بل منفى.

**

سنكون،

رغم هندسةِ الأقدار،

رغم نظراتِ الزمنِ

الذي لا يقرأ الشعر،

ولا يفهمُ أن بعضَ الثيابِ

أوسع من أصحابها...

وبعضَ القلوب

أغنى من خزائنهم.

فلتكفّ عني

كلُّ الأسئلة،

ولتسقطَ الخرائط،

ولتُخرسْ

كلُّ فوارقِ الطينِ والعطر،

ما دمتِ

حين تلمسين يدي

أشعرُ أنني

أجلسُ مع نفسي

في غرفةٍ

لا يدخلها سواي.

**

هي أشياء لا تُشترى...

كما يُهمَسُ في الصمت،

وأنا...

أملكِ الآن

كما يملكُ الفقيرُ

سماءً لا يراها أحدٌ

غيره.

نَجْمَةُ اللّا زَمان

النجمة ليست سوى سؤالٍ بلا جواب، ونظرةٌ تحفر في اللازمن ضياءً لا يُطفأ.

حين تنظرين إليّ يا نجمةَ الغياب الأزلي...

يتحوّلُ الزمنُ إلى رمادِ تقويمٍ منسي،

وتُطفئُ الشمسُ مشكاتَها

كأنّ أفروديتَ مرّت من ههنا،

وخلعتْ عن الضوءِ نعليه.

أنا لا أراكِ...

بل أرتشفكِ كتعويذةٍ سومريّة،

أتهجّاكِ كما تهجّى أورفيوس صدى يوريديس،

أكتبُكِ

في أوراقِ الأشجارِ الأولى،

حين كانت تُصلّي للغيم

قبل اختراع المطر.

حين تنظرين إليّ يا نجمةَ الغياب الأزلي...

يتلعثمُ الوجود،

ويهربُ المعنى من تحت جلودِ اللغة،

ويتهشّمُ الحرفُ على فمِ القصيدة

كأنكِ الكلمةُ التي

رفضتْها الآلهة

لأنها أكثرُ فتنةً من النبوءة.

فيكِ

يستحمُّ الطينُ بمعناه،

وتنهضُ الحكاياتُ من سباتها،

تمشي على قدمين من الضوء،

تحملُ اسمكِ

إينانا؟

أم أستريا؟

أم وهمٌ منقوشٌ على تابوتِ المعنى؟

حين تنظرين إليّ يا نجمةَ الغياب الأزلي...

تتشقّقُ المرايا عن مدنٍ لم تُخلق،

وتستيقظُ المجرّاتُ

على رنينِ خلخالكِ،

ويغفو الزمنُ في راحتكِ

كطفلٍ يتيمٍ

أهدته الآلهةُ صدفةَ اللقاء.

ضحكتكِ؟

رقصةُ ديونيسوس في وليمةِ العدم،

وصوتكِ؟

مزاميرُ خرساء

لا يقرأها إلا القلبُ

الذي ضلّ طريقهُ إلى السماء.

تعالي...

كوني طقسي،

أصلّي إليكِ كما يُصلّى للغياب،

أحرقُ بخورَ الروح

على مذابحِ صمتكِ،

وأنتظرُ...

نجمةً سقطت عن خارطةِ الليل.

حين تنظرين إليّ يا نجمةَ الغياب الأزلي...

أُحبكِ...

كقُبلةٍ سُرقت من وجهِ تمثال،

كحرفٍ لُعن لأنه عرف النشوة،

كقَصيدةٍ

أُخفيتْ عن أعينِ البشر

لأنها قالت ما لا ينبغي أن يُقال.

ظِلّي الّذي خاصَمَني

إلى التي إن خاصمتني، خاصمني الضوءُ في الأشياء، وإن غابت، ضلّني صوتي عنّي، لكن قلبي ظلّ يخبّئ مكانها كما تُخبئ الأرضُ بذرةَ المطر

**

لم أقصد أن أفتح النافذة

حين كان قلبك يرتجف بردًا

ولا أن أقول الصمت

حين كان الكلام يجرحك أكثر

لم أنتبه

أن ظلّي – الذي مشى خلفك –

قد سبقني هذه المرّة

ورفع عني اسمي

أنا يا صديقتي

ذلك الغصن الذي مال من الحياء

لا من الجفاء

وذلك الضوء الذي ارتبك

حين سألته عيناك:

«هل هذا هو المعنى؟»

لم أكن سوى مرآة مشروخة

تحاول أن تعيد ملامحك

بما تبقّى من ضوءٍ في الزوايا

كل ما في الأمر

أنني خفتُ عليكِ من حزنكِ

فوقفتُ بعيدًا

لئلا تري في عينيكِ

صدى دمعتك

لكنني نسيتُ

أن البُعد، حين يكون صامتًا،

يشبه الخيانة

وأن من يحب،

يُخطئ حين يظن أن الانسحاب

هو شكل من أشكال الحب

صديقتي...

هل تذكرين الخطى التي كنا نخطوها؟

كنا نسير بلا لغة

لكن القلوب كانت تترجم الغيم في عيوننا

والأمل حين يهبط خفيفًا على الأرصفة

فلماذا صرتِ تشبهين الغريب

وتنظرين إليَّ كما لو أنني

تلك الغيمة التي لم تمطر،

وذلك الموعد الذي لم يأتِ؟

إن كنتُ جرحتكِ

فاعذريني كمن يعثرُ على وردةٍ في عتمة

فيده لا تعرف إن كانت

قد قطفت جمالها،

أم نزفت شوكها

عودي...

ليس إلى صداقتنا القديمة

بل إلى ذلك الشعور

الذي لا يملك اسمًا

لكنه يعرف الطريق حين نضيع

عودي...

فأنا ما زلتُ

أخجل من ظلي

الذي خاصمني

وظنَّكِ الغياب

الذي يشبه الجفاء

ولا يعنيه

على هامِشِ الرِّيح

تمضي ببطءٍ
كما تمضي السنابل في يقين الحقل
لا تسألُ المدى،
ولا تنتظر تصفيقـًا من العابرين.
تمضي،
وفي يدها كيسٌ من الضوء
تُخفيه في الحقيبة،
تفتحه كلما مرّت الريح،
وتنثر منه أثراً
لا يُرى...
إلا لمن يُبصر بالذاكرة.

**

«لماذا؟»
سألها ظلُّ رجلٍ
يسكن المرايا المكسورة.

أجابتْ:

لأني لا أملك وقتًا للعبث،

ولا أُقايضُ خطايَ بوعدِ الوصول.

أنا فقط...

أرسمُ احتمالات الحياة

بريشةِ الأمل.

**

أعرفُ أن الجفاف يسكن هذا التراب،

وأن العيون لا ترى

سوى التكرار الرتيب،

لكن ماذا لو...

جاءت غيمةٌ متأخرةٌ

تحملُ في رحمها الندى؟

ماذا لو...

أراد العطر أن يهرب من جرح الوردة؟

ماذا لو...

لمحت طفلةٌ لونًا

لم تعرفه الكتبُ المدرسية؟

**

أنا لا أزرع لأحصد،

ولا أكتب لأُقرأ،

ولا أُحبُّ لأُحبّ.

أنا أفعل...

لأنني عابرةٌ في هذا السراب،

والعبورُ لا يحتاج إذنَ البوّابات.

**

ضحكوا،

حين تناثرَ رحيقي في الهواء،

قالوا:

هذا عبثُ المُسِنّين،

ولم يعلموا

أن بعض العبث

هو بداية الانبعاث.

**

الآن،

حين تغير لون الطريق،

وتحوّلت الحصى إلى بتلات،

لم أعد هنا

لكن أحدهم يبتسم

ولا يعرف سر ابتسامته.

طفلةٌ تشير بإصبعها:

«أنظر، يا أبي،

كم يشبه هذا المكان الحلم!»

***

قد لا يعرف أحدٌ

أنّي مررتُ من هنا،

أنّي كنتُ الريحَ

والبذرةَ

والظنَّ الجميل.

لكني أعرف،

أن بعض الخطى،

تتركُ خلفها طريقًا

يمشي عليه الآخرون

حتى وإن كانت على هامش الريح.

***

كوشمٍ مخفيٍّ تحت جلد الزمان،

ينتظرُ لمسةَ القدر،

لا يعرفُ من ينفخ فيه الحياة:

نَفَسُ المطر... أم خفقُ الذكرى.

حينَ يَنسى الطَّريقُ نَفسَهُ

خطوة لا تترك أثراً،
وهواجس تتقاطر كندى فوق زجاجٍ لا يُرى،
ظلال تتشابهُ في وجهها،
تدور حول فوهة فراغٍ لا يستكين،
حيث ينمو الصمت في رئة العدم،
ويهمس للغربة بلغةٍ من رمادٍ لم يُكتب له صوت.
يطفو من دون وزن،
كصدى طيفٍ ضلّ طريقه في حلكة من لا مكان،
يُمسك بخيوط الهواء الثقيلة،
يحاول أن يُعيد تركيبَ صورةٍ تلاشت بين مرآتين؛
مرآة تحاكي الماضي،
ومرآة تُنادي بالمستقبل،
لكن في المنتصف، يكمن سرُّ التلاشي.
تذوب الحدود بين ليلِ اليقظة ونوم السُّبات،
تتقطع الأسئلة إلى أشلاءَ،

تتوالد الأوهام كما تنبتُ الغيومُ في سماءٍ بلا سماء،
وهناك، في تلك المسافة التي لا تُقاس،
ينبتُ تساؤلٌ بلا جواب،
يرتشفُ وجوده من نهرٍ جاف،
ويتنفس عتمةً لا تُعرفُ.
لا مَكانٌ ليقف فيه، ولا وجهةٌ يُدعى إليها،
كلُ مفردةٍ تنزلقُ نحو أفقٍ بلا أفق،
يتسلق جسوراً من صمتٍ،
ينزل إلى بحارٍ من غياب،
ويخوض رحلةً في ذاتٍ تفتك بها رياحُ اللاشيء.
يُدركُ في لحظةٍ متشابكةٍ،
أن التيه ليس فقط غياب الطريق،
بل غياب النفس عن نفسها،
هو لعبة الظل التي لا تنتهي،
حيث يرسم المرء وجهه على سطح الماء،
ليراه يتهدم مع كل موجةٍ جديدة.
لكن هل ينتهي التيه؟

أم هو كأغنيةٍ تُعادُ في سرِّ الريح؟

ينساب بين الأصابع،

ويبقى رفيقـًا في هذا المشهد المشتت،

حتى حين تهمس النهاية،

تلك النهاية التي لا يُفهمُ منها إلا استمرار التيه،

ويرحل كل شيء،

ويبقى هذا السؤالُ كنسمةٍ تلتفّ حول الحلم،

تسأل:

أين؟

ومتى؟

ولماذا؟

سَماءٌ لا تَتَّسِعُ لِظِلِّي

ليستِ الجغرافيا ما يصنعُ الانتماء،
بلْ ما يَرتجفُ لهُ القلبُ حينَ تُنزعُ جذورُه،
وما إذا رَفَّتِ الحروفُ في ظلمةِ الفقدِ،
وبقيتِ النبضاتُ تُعانِدُ الأسلاك.
ما الوطنُ إنْ لم يكنْ صوتُكَ حينَ تخاف،
وإنْ لم يكنْ ظلُّكَ حينَ تتشظّى في المرايا؟
ها أنا أمشي على خرائطَ بلا عنوان،
وأحملُ وجهي ككتابٍ منزوعِ الغلاف،
وأُصغي لما لم يُقَلْ، لما لا يُقال...
فلنبدأ من المنفى، لا من البداية.

(١)

كنتُ أعبُرُ الجدرانَ كما لو كنتُ هواءً،
لم تكنْ لي شجرةٌ في الساحة،
ولا مقعدٌ باسمي في الصفِّ الأوّل،
لكنني حملتُ دمي بين أضلعي

كوصيّةٍ مكتوبةٍ بلهيبِ الغياب،
كلّما رنَّ جرسُ اللغةِ،
أجبتُ... باسمي المستعار.

**

كانوا يرسُمونَ هُويتي
بأقلامٍ مغموسةٍ في الرماد،
يمسحون ملامحي كلّما نطقتُ،
ويُعيدونَ ترتيبَ فمي على مِقاسِ الصوتِ المأذون،
لكنّ روحي كانت تُنشدُ نشيدًا
لا تُدركُهُ أُحجيَةُ التراب.

(٢)

في بلادٍ أُخرى
التقطتُ ظلّي من الحائط،
غسلتُه من دَنَسِ الشتائم،
وفتحوا لي نافذةً على الضوء،
قالوا: اكتب...
فكتبتُ الغابةَ الأولى التي شهقتْ فيها أمي، خوفًا من الضوء،

والماءَ الذي وُلدتُ عليه
قبل أن يُصبحَ مالحًا من الندم.

**

أجل، كتبتُ بلغتي الأولى،
لا بلسانِ القيد،
ولا بأبجديّةِ المنع،
فجاءتْ حروفي مثلَ أسنانيَ اللبنية،
تَسقُطُ واحدةً تِلوَ أُخرى،
وتَنمو مِن بَعدِها حُقولُ نَجاة.

(٣)

هم قالوا:
«أنتَ لستَ منّا،
لونُكَ لا يُشبهُ الأبواب،
لهجتُكَ تَنكأُ جراحًا لم نَشفَ منها،
وأحرفُكَ غريبةٌ على جدراننا.»
فخرجتُ من صورةِ الجماعة،
ودفنتُ اسمي في جيبِ معطفي.

**

لكن هناك،
على الضفّةِ الأُخرى،
كانوا يقرأونني بصوتٍ دافئ،
كأنني طقسٌ من طقوسِ الضوء،
يشرحونَ عزلتي للأطفال
ويقولون: «هذا إنسانٌ لم يُخنْ صوتَه.»

(٤)

أيُّ أرضٍ هذهِ التي
تَرى في الحرفِ خيانةً،
وفي الشجرةِ مشنقةً،
وفي الطينِ رِجسًا؟
أيُّ أرضٍ تَنبتُ عليها الروحُ
فَتُجتثُّ كلّما نطقتْ بالأصل؟
أنا مَن كُنتُ للتُّرابِ صَدًى،
فصارَ التُّرابُ لي مَنفًى.

***

لكنّي حين أنشدتُ اسمي في الغياب،
سمعتُ الصدى يأتي من الجهة الأخرى،

يحمل دفءَ من لم يسأل عن اسمي،
ويهمسُ لي بأن الروح لا تموت،
وأنَّ الأرضَ مهما قستْ، تبقى موطنـًا للحلم.

(٥)

وهكذا،
حينَ يسألونني عن الوطن،
أضعُ كفّي على صدري،
لا على خارطة،
وأقول:
هو حيثُ تُحترمُ دمعتي،
وحيثُ لا يجلدون القصيدةَ لأنّها لا تُزغرد،
هو حيثُ صمتي لا يُتَّهَمُ بالخيانة،
وحيثُ موتي...
موتٌ لا يحتاجُ إلى تأشيرة.

**

لكنّهم ما زالوا يرسمون الحدودَ على تنفّسي،
ويقيسون انتمائي بما لا أقوله،
يريدونني نسخةً من صدى الجماعة،

أن أُشبه المرايا حين تُدجّن الوجوه،
أن أكتب نشيدي بصوتٍ لا يشبهني،
لكنني حين أنطقت وجعي بلونٍ شفيف،
عرفتُ أن الوطنَ قد لا يكون مكانًا...
بل نَفَسًا لا يُراقَب.

**

حين فقدت اللغة قدرتها، تحدّث ظلّي...
ربما كنتُ شجرةً زُرِعَتْ في تُرابٍ غريب،
لكنّها أثمرت...
ربما كانت أكمامي لا تُشبهُ ما مضى،
لكنّ النسيمَ لامَسها ومضى،
فماذا لو غنّى طائرٌ في غيرِ سِربه؟
هل يُعدَم؟
أم يُحتفى به... رسولاً للريح؟
أخبروني أنتم...
أينَ تَنامُ الأرواحُ بعدَ النفي؟

حينَ يُزهِرُ الفَناءُ

نموتُ...
كي تحيا السنابلُ نضرةً
وتورقَ الأحلامُ
في ليلِ المدى.
فالموتُ
بابٌ للحياةِ،
وإنّما
تنمو البداياتُ الجميلةُ
كي يُولدَ المعنى
إذا غابَ الصدى.
كالفجرِ
يولدُ من ظلامٍ دامسٍ،
وكأنَّ في طيِّ الفناءِ
تجدُّدًا...
ما ماتَ زرعٌ

بالمواسمِ خائبًا

إلا وعادَ

لروحِ أرضٍ موردًا.

وإذا بكتْ

عينُ الترابِ دموعَهُ،

ضحكتْ زهورُ الحقلِ

تنثرُ شهدَها...

فالدفنُ

ليسَ نهايةً في دربِنا،

بل رحمُ خلقٍ

يستعدُّ لِوَلدِها.

تغفو الجذورُ

على رجاءِ نهوضِها،

فتفيقُ أغصانٌ

تشقُّ صمتَها.

وتموتُ نارُ الحزنِ

حتى تنجلي

عن نورِ روحٍ
قد سنا توقّدَها.
من كلِّ قبرٍ
ينبتُ الحلمُ الذي
يمضي بوجهِ النورِ
يرجو مقصدَه.
فالموتُ لحنٌ
في الحياةِ خفيُّهُ،
من يفهمِ الأوتارَ
يُتقنْ مردَّدَهْ.
ما خابَ من
سكنَ الترابَ بقلبِهِ،
فالترْبُ
يَصغى للحياةِ إذا نَدَى.
إنَّ الجراحَ
وإن توارتْ برهةً،
ستنالُ من وهجِ الشموسِ

تجدُّدَا.

تحتَ الرمادِ،

هناكَ جمرٌ ناطقٌ،

يبقى

ليحملَ في السكوتِ

توقُّدَا.

والموتُ

إنْ غفَتِ الحياةُ بقلبِه،

أيقظْتَها

نفسٌ تُحبُّ التجدُّدَا.

ما بينَ موتِ الشيءِ

يولدُ ضدُّهُ،

فتعودُ في أعماقِهِ

المعنى صدى.

كأنّما الأرواحُ

إن ذابتْ، مضتْ

لتعيدَ رسمَ النورِ

في مَنْ أنجدا.

تمضي الحياةُ

على خُطى موتٍ بها،

تتوشَّحُ الأكوانُ

معنى المُبتدا.

فإذا غفتْ

شمسُ النهارِ برحمةٍ،

أيقظْتَها

فلكيًّا نجومٌ وسُدى.

وإذا انتهى

فصلُ الخريفِ بغصنهِ،

عادَ الربيعُ

يُناغمُ الورقَ الندَى.

فالموتُ

مرسى للسفينةِ،

حينما

تشتاقُ

أن تلقى الحياةَ مجدَّدَا.

تذرو الرياحُ

بذورَ حزنٍ في الثرى،

فتنبتُ الأزهارُ

عطرًا لا يُنسّى.

وفي ظلالِ الرحلةِ

يولدُ رجْعُنا،

كالفجرِ

يشرقُ بعدَ ليلٍ

مظلمِ.

ففي رحابِ الفَناءِ

تولدُ المعنى،

وتزهرُ الحياةُ

من رُقَدِ الغاني.

لا يأسَ

في دربٍ

تطاولَ ألمُه،

فالليلُ

يعقبُهُ دومًا

فجرُ اليقينِ.

والموتُ

إن ظننَاهُ

نهايةَ رحلتِنا،

فهو المهدُ،

وهو في الأصلِ

المبتدأ.

رَفَّةٌ على زُجاجِ الصَّمتِ

إلى جان دومينيك (*)

حين انكسرَ الجسدُ

وتبعثرَ الصوتُ في دهاليز الجماد،

لم يبقَ من الوطنِ سوى رمشٍ

يرتجفُ كلما مرّ طيفُ المعنى...

العينُ:

نافذةٌ تُطلُّ على خرائط الغيب،

ومهتَزٌّ،

يخطُّ نشيدًا

في هواءِ لا يُسمَع...

ما تبقّى من اللغة؟

حرفٌ يتدلّى من حبلِ الصبر،

(*)جان دومينيك: روائي وصحفي فرنسي، ألف روايته «بذلة الغوص والفراشة» الوحيدة بتحريك جفن عينه اليسرى..!! عندما أصيب بالشَّلل التَّام بعد جلطةٍ دماغيَّةٍ حادَّةٍ، توفي بعد صدور الرواية بثلاثة أيام.

يتيمٌ

ينتظرُ رِمَشًا ليولدَ من جديد.

إنّه الحرفُ

الذي لا يُقال،

بل يُحدَّقُ فيه طويلًا

حتى يستقيم المعنى على عصا النوايا. (خيط الوهم)

في الصمتِ المُثقَّلِ بالخُذلانِ،

ينامُ العالمُ،

ولا أحدٌ يَسمعُ

شهقةَ الحروفِ حين تُنتزَع

من غلالةِ الغياب.

كأنّها اعترافٌ أخيرٌ

من فمٍ لا يملكه.

كلّ الحكاياتِ خُيطَتْ بإبرةِ رمش،

كلّ الفصولِ تسرَّبتْ من عَينٍ

تحرسُ الفراغَ

وتتأملُ

كيف تنمو فراشةٌ

في رئةٍ مُقفلة.

الغرفةُ ضيّقةٌ كبيتِ المعنى،

والزمنُ يُفرّغُ نفسه في قارورةٍ زجاجيّة،

حيث الرغبةُ تسيرُ على عكّازٍ

من رغوةِ الأمل.

لا شيء يُشيرُ إلى تفتُّق الأبديّة،

إلّا

نقطةٌ تُسجَّلُ

بعد ألفِ رمشة،

كأنّها وصيّةٌ لم تُكتبْ

بل حَلِمَتْ نفسها.

في اللامكان،

تنتصبُ المكتبةُ الكبرى:

صفحةٌ بنصفِ مجرّة،

وسطرٌ واحدٌ

يعادلُ شتاءَ عُمرٍ بكامله.

أن تكتبَ بالعدم،

أن تَصرُفَ النهارَ

لأجلِ فاصلةٍ

تُعيدُ ترتيبَ المجهول...

ذاك هو المعنى الذي لم تلتقطه اللغةُ.

«كان يمكن أن أموتَ»،

همسَ الرمادُ في عينِ الجمرة،

«لكنّي... رمشتُ.»

السائرُ في جسدٍ محنّطٍ

ليس ميتًا،

ولا حيًّا...

هو تأويلٌ نائمٌ

في حضنِ الرمز،

صورةٌ لا تتكرر

إلّا إذا قرأها الصمتُ بالعاطفة.

كلّ رفةٍ كانت أغنية،

كلّ همسٍ كان فصلاً من فصولِ الاعتراف،

كلّ رمشٍ

مرآةٌ لوهمِ الحريّة...

ولم يكن يعرفُ:

هل يعزفُ نوتةً؟

أم يفتحُ بوابةً إلى اللاشيء؟

الورقةُ الأخيرة

لم تُكتَب،

وربما كانت هي التي كَتَبَتكَ،

قبل أن تهمسَ الكلماتُ بغيابِها.

حينَ أضاعَتِ السُّيوفُ ظِلَّها

كانوا يمشون على أطراف الريح،

لا يوقظون الرمل،

ولا يخلّفون وراءهم غير الصدى.

كان الواحد منهم

إذا صمتَ... أنصتَ له الغيم،

وإذا تكلّم، ارتعش على وجه القمر ضوءُ الحكمة.

لم يكونوا كثيرين،

لكن الظلال كانت تهابهم.

**

واليوم...

تتسكّع المرايا في الأزقّة،

تسأل: من سرق انكساراتها؟

والصوتُ الذي كان يوقظ في الجبال نُبْلَ الحجر،

صار يُؤجّرُ في مواسم الهتاف.

**

أرأيتَ كيف انحنى الغار؟

وكيف صار المجدُ قَصّةً مخرومة تُروى على عَجل؟

من ذا الذي بدّل الرملَ بالحصى؟

والدمعَ بالمكياج الأسود؟

من ذا الذي قال للكرامة: اجلسي خلف الستار،

فهنا لا حاجة لنبلٍ يكسر صمت القطيع!

**

يا صاحبي،

ما عاد في الساحاتِ من يُحسنُ الوقوف،

ما عادت الرؤوسُ عاليةً،

إلا إذا لمعَت في شاشة لا تحفظ الذاكرة.

نَحنُ في زمنٍ يُصلَبُ فيه المعنى،

ويُعطّرُ الجُبنُ بعطرِ الانتصارات المُزيّفة.

**

هل تذكر،

حين كان الانكسارُ عيبًا،

وحين كان الجوعُ رجولة،

وحين كان العدلُ لا يُقاسُ بميزان القبيلة،

بل بدمعة اليتيم؟

اليوم...

يُحاكم النبلُ على شاشات الإعلانات،

وتُباعُ الضمائرُ في عروض الجمعة السوداء.

**

لكني رأيتُ طيفًا،

يمرُّ في الحلمِ حافيًا،

يحملُ درعًا مكسورًا،

ويبتسم كأنّه يعرف الطريق.

سألته:

أما متَّ بعد؟

قال: «لا يُقتَل من يسكن في القلوب...

لكنني أضعت ظلّي حين خانتني السيوف».

**

أيتها الخيول الغافية في دهاليز الذاكرة،

عودي...

حتّى لو مشيتِ على عكّاز الحنين،

عودي،

فإن للتراب رائحةً لا تُشترى،

وإن الضمير حين يُوقظ،

قد يربّي ألف فارسٍ في جسدِ طفلٍ واحد.

بَقِيَ في السّاحَةِ ظِلٌّ انتِظارٍ

إلى محمود درويش... الذي رأى من دفع الثمن

حينَ تجفُّ المدافعُ من دمها،
وتغفو البنادقُ فوق أكتافِ الخيبة،
يعودُ القائدُ بوسامٍ جديد...
وتبقى الأمُّ،
تُطرّزُ اسمَ ابنها على وسادة الغياب.

**

ستنتهي الحرب،
وسيُعادُ رسمُ الخرائطِ بالحبرِ المستورد،
ويُقصُّ الشريطُ الحريريُّ في حفلة النصر،
لكنَّ الخنادقَ لن تنسى رائحةَ الصدى.
ستنتهي الحرب،
ويعودُ الجنرالُ ليمارس لعبةَ الشطرنج
بلُقىً مهترئةٍ من الذاكرة،
لكنَّ العجوزَ التي باعَ ابنُها حنطتَها للتراب،

ما زالت تضعُ الكرسيَّ قربَ الباب،
وتعدُّ خطواتِ القادمين.
ستنتهي الحرب،
وتكتبُ الجرائدُ أنَّ الوطنَ انتصر،
بينما ترسمُ فتاةٌ
وجهَ من انتظرتهُ على بخارِ نافذتها،
ثم تمسحه بكمِّ ثوبها...
كأنها تمحو وجهَ الحلم.
ستنتهي الحرب،
لكنَّ الولدَ الذي كبرَ على صورةِ أبيه
في بروازٍ مائل،
ما زال يسأل:
لماذا لم يُكملْ قصته؟
ولماذا يبتسمُ في الصورة
ولا يعود؟
ستنتهي الحرب،
وتُطوى الخنادقُ كما تُطوى الرسائل،

ويبقى في زاويةِ الطينِ

سؤالٌ يتعفّن:

من باعَ الوطن؟

ومن قبضَ الثمن؟

لكنَّ من دفعوه...

من بكى،

من حملَ التوابيتَ على أكتافِ الذهول،

لا وقتَ لديهم للسؤال،

كانوا مشغولينَ

بمراعاةِ صمتِ الراحلين.

ستنتهي الحرب،

وتمتلئُ الشوارعُ بالأناشيدِ الجديدة،

لكنَّ ظلَّ الذينَ سقطوا،

لا يزالُ ممدودًا على الإسفلتِ

كأنه خطأٌ مطبعيٌّ في نشيدِ البداية.

ستنتهي الحرب،

ويُقالُ في البيانِ الأخير:

لقد عدنا إلى السلام،

لكنَّ الدمَ،

لم يجدْ مَن يعيدُ له وجهَه القديم،

ولا الوطنَ،

من يفتحُ له بابًا دونَ قفل.

**

ستنتهي الحرب،

لكنَّ الحربَ التي بداخلنا

لن تُرفعَ عنها الرايات،

فما أكثرَ النصرَ حينَ يغيبُ الوجعُ

وما أقلَّه حينَ يحضرُ بلا أحد.

ستنتهي الحرب،

ويغادرُ القادةُ المشهد،

وتبقى الخساراتُ

تطهو أيامَنا على نارٍ هادئة،

ونحنُ...

نُصفّقُ للفراغ.

ظِلُّ القُبَّةِ

تدلّى الجرسُ من قلبِ الريحِ
ولم يرنَّ...
مضى زمنُ البنادقِ
لكنّ في الركنِ
ظلٌّ يرتّبُ صمتَ الأسوارِ،
ويسهرُ في نُعاسِ الحجرْ.
كانت قبّتهُ
نسجَ أقدارٍ قديمة،
من خرقةِ السلطانِ
وريشةِ مؤذّنٍ
لم يُكمل الأذانْ.
هو لم يكنْ جنديًّا،
ولا ظلًّا لرايةْ،
كانَ هو...
ظلَّ الصخرةِ التي بكتْ حينَ بكتْ،

واليدِ التي طوّقتْ الضياءْ.

كأنَّه آخرُ سطرٍ

في دفترِ الحنينْ،

لا يُسلِّمُ مفتاحَهُ

إلا ليدٍ

تتوضّأُ بالماءِ والصبرِ،

وتُحسنُ قراءةَ الحنينِ

على ضوءِ المصاحفْ.

كلُّ شيءٍ تبدّلَ،

إلا هو...

كأنّ الدهرَ نسيه،

أو أنَّه نسيَ أن يشيخْ.

كان يعلّقُ الوقتَ

على جدارِ الغياب،

وينتظرُ

أن تعودَ القدمُ التي انخلعتْ من الرملِ

لتطأ المكانْ،

فينهضَ هو،

ويُسَلِّمَ سلامَهُ الأخيرْ...

لكنه...

نامَ واقفًا

كشجرةِ زيتونٍ

أُوكلَتْ لها الأرضُ

وصيّةَ القبلةْ،

ولم تُخطئْ العهدَ...

نامَ،

وما زال الحصنُ يُقسمُ

أنَّ صوته

لم يغبْ.

إلى حَيثُ لا أكونُ أنا

خطوتي انزلقتْ من النسيجِ،
وسُحبتُ من دفءِ الأصواتِ كخيطٍ انقطع.
كانَ بيتي خلفَ وجهي،
وكانَ العمرُ نافذةً أغلقتها الريحُ،
وما ارتدّت...
في الزقاقِ الخلفيّ لذاكرتي
رأيتُني محمولاً على أكتافِ الغياب،
وكانوا يتهامسون:
«كانَ طيّبًا... لولا غفلته...»
«كم صلى؟ وهل أوصى؟»
«أظنّه لم يجهّز كفنه...»
لكنّ آخرينَ
كانوا خلفَ نعشي...
يتقدّمهم الصمتُ،
وتتأخر عنهم العبرة.

سمعتُ أحاديثَ تُطلّ من جيوبِهم،

عن أسعارِ البيوت،

وراتبِ هذا الشهر،

وعن زواجِ ابنِ فلان،

وبعضُهم قالَ:

«صحيحٌ أن الدنيا دارُ فناء،

لكنَّ فلانًا اشترى مزرعةً في الشمال...»

لم يكنْ أحدٌ يُحدّثُ ظلّه عنّي،

ولا عن الرحلةِ التي بدأتُها،

إلا شيخًا

أشارَ إلى السماءِ

وسكتَ.

كنتُ أصرخُ فيهم:

أنا هنا! بينكم! لا تواروا اسمي بالتراب!

لكنّ الصوتَ لم يصدأْ فيهم،

ولا حتى ارتجفَ ظلّي على طرف الحديث.

قلتُ لهم:

يا أنصافَ الفاقدين،

أما رأيتموني أسيرُ بلا عودة؟

أما سمعتمُ الأرضَ

تبتلعُ الوعدَ والذكرى؟

أينَ الحكمةُ في الموكب؟

أينَ الدرسُ؟

أينَ المرآةُ التي لا تكذب؟

لكني لم أُسمعْ...

كانوا منشغلين بالطقسِ،

هل سيمطر؟

وبأيّ طريقٍ يعودون؟

في ذلكَ الممرّ الترابيّ،

حملتُ خيبتين:

أن أرحلَ دون أن أُحزن،

وأن يمضي القومُ كما جاؤوا،

خفافًا...

من دونِ عبرة.

ألقوني...

لا بل وضّبوني في ثوبِ عريٍ لا يَنكَشِف،

وأغلقوا البابَ عليّ،

بابًا لا يُطرَقُ من الداخلِ،

ولا يُفْتَحُ من الخارج...

الأرضُ ضاقتْ عني،

لم تكن حجراً، بل فكرةٌ ضاغطة،

وسوادُها...

لم يكن ليلًا، بل عجزًا عن التذكُّر.

ناديتُ:

يا نسمةَ الروحِ الهاربة من فمي،

عودي إليّ،

أخبريني: ماذا رأتْ عينُكِ خلفَ الأفقِ؟

هل السماءُ بابٌ؟

أم مرايا لا تعكسُ الوجوهَ التي غادرتْ؟

صمتٌ...

ثمّ حفيفٌ كأجنحةِ شمعٍ تذوب،

ومضتْ روحي،

وانفصلَ عنّي اسمي،

وصارَ النسيانُ بطانيتي.

تساءلتُ في وحدتي:

هل كانت الحياةُ حلمـًا جميلاً نسي أن يستيقظ؟

هل الموتُ مرآةٌ نُقشَتْ عليها أخطاؤنا بلغةٍ لا تُمحى؟

المكانُ لا يقيسُ الوقت،

والزمانُ لا يحملُ ظلّيه هنا،

كلُّ ما تبقّى

رائحةُ من كنتُه...

وأمنيةٌ عالقةٌ في عتبةٍ لا تؤدّي إلى باب.

هناكَ،

حين يتساوى الغنيُّ بالفقير،

ويُطوى الاسمُ في ورقة،

ويُنسى الصوتُ في صدى الخطى،

تتجلّى الحقيقة:

أن الحياةَ... مجازٌ لا يكتمل،

وأننا كنّا نظنّها الأصل.

لا تزالُ روحي تصعدُ،

وأنا، في الأسفلِ، ألوّحُ لها

كمن يودّع قصيدةً لم تُكتَب بعد،

ويسيرُ نحو المجهول

بخطوةٍ

قد لا تنتهي...

حينَ تُثمِرُ الأرضُ الوَعيَ

في البدءِ، لم يكن في الساحةِ غيرُ ضجيجِ السياسةِ وقرعِ الطبول،

وكانت البذورُ تنامُ في صمتِ الحقول،

كأنها تعرف أنَّ من لا يحرثُ الأرض،

لن يفهم شكلَ الوطن.

**

وقفَ في وسطِ العاصفة،

وكان أولَ ما فعله: أن أنصتَ إلى همسِ التراب،

أن وضعَ يدهُ على قلبِ القمحِ،

وقال: «لن تجوعوا بعد الآن»،

فالأرضُ التي لا تُسقى بالحبِّ،

تُنبتُ شوكًا في العقول.

**

سألوه:

أهذا وقتُ الزراعةِ يا سيدي؟

ولدينا جراحٌ تتكلم،

ودموعٌ لا تجدُ مناديلها؟

فابتسم كمن يعرفُ أسرارَ الغيم،

وقال:

«الجوعُ لا يكتبُ دستورًا،

ولا يبني وطنًا،

ولا يحمي كرامةً تسكنُ في رغيف».

**

من البطنِ الخاوي يولدُ الذلُّ،

من الطوابيرِ تنمو عبوديةُ العصر،

من الجوعِ تُباع الأوطانُ على الأرصفة،

ولا شيء يقفُ في وجهِ الريحِ

سوى فلاحٍ آمنَ أن القمحَ مقاومة،

وأن السنبلةَ لا تنحني،

إلا لتُقبلَ الأرض.

**

الحريةُ لا تولدُ في المجالس،
بل في سنابلِ القمحِ حين تهتزُّ فرحًا،
وفي رائحةِ الخبزِ حين تستفيقُ المدنُ على كرامةٍ دافئة،
في أيدي الأمهاتِ وهي تعجنُ الأمل،
وفي نظرةِ طفلٍ لا يعرفُ الجوعَ
إلا في كتبِ التاريخ.

**

ليس القائدُ من يرفعُ الشعارات،
بل من يزرعُ الفكرةَ في حقلٍ عطش،
ويرويها بالصدقِ والعرق،
ليكونَ الحصادُ وطنًا يأكلُ من خيرِه،
ويحرسهُ شبابهُ من على السطوحِ لا من تحت الطاولات.

**

من يملكُ غذاءه،
يمتلكُ صوته،
ومن يملكُ صوته،
لا يُؤجّرُ قرارهُ على الأرصفةِ السياسية،

ولا يُطأطئُ رأسهُ أمامَ الطغاة،

ولا يُخيفهُ حصارٌ ولا تهديدٌ ولا تجويع.

**

فليكن للزراعةِ نشيدٌ،

وللفلاحين تمثال،

وللسنابلِ عرش،

لأنهم حراسُ القرار،

وبُناةُ الكرامة،

وكتبةُ الحريةِ على ألواحِ الحقول.

**

في الأرضِ تبدأُ الحكاية،

وفي الرغيفِ تنتهي كلُّ المزايدات،

وما بينَ بذرةٍ تُغرسُ بإيمان،

وسنبلةٍ تُحصدُ بكرامة،

يُكتبُ اسمُ الوطنِ بالحبرِ الأخضر،

لا بمدادِ التصفيق.

على مَرمى بُرتُقالةٍ مِنَ القَلبِ

لا أعرف كيف بدأتُ هذا الصباح
كان كل شيء يتثاءب من حولي
الحيطان تمضغ ظلّي
والنافذة تطرُق زجاجها مثل مجنونٍ يُنادي باسمي
ثيابي محشوّةٌ بغبارٍ أعرف رائحته
غبار يشبه ما كانت تذروه يدُ أبي
حين كان يُنقّي العدس من الحصى
ببطءٍ، كما لو كان يخلّص العمر من شوائب الغياب
في منتصف الشارع،
أحسّ أن قدميّ تمشيان على خارطة لم أرسمها
وأنّ سقفي هشّ
كأنه من ورقِ صلاةٍ نسيها إمام في منتصف الخشوع
كل حجرٍ يسألني:
هل عدت؟

فأردّ عليهم بإيماءة لا يفهمها إلا مَن خبأ اسم أمه

تحت بلاطة قديمة في ساحة المدرسة

تُرى، مَن يكتب اسمي على أبواب النار؟

من ينقش وجهي في زفير الفرن

حين تخبز أمي الغياب في رغيفين

واحد لي، وآخر لمن لا يعودون

كان يمكنني أن أحبّكِ مثل نايٍ

لكنني سمعتكِ تناديننني من بئر جاف

فأدركتُ أن الماء لا ينسى مَن حفَرَه

كلُّ شيءٍ هنا يعرفني أكثر مما أعرف نفسي

الهواء الذي يلسع وجهي يعرف قصتي

والممرّ الذي ينحني عند الزاوية

يحمل آثار قدميّ كما يحمل الجرح ذاكرة السكين

وحين أبتسم للعدم،

ينعكس وجهي على زجاجِ متجرٍ مغلق

فأراه طفلاً

يعضّ على مفتاح
ويبحث عن باب لم يُبْنَ بعد

**

لم أعد أحبّ الكلام
صرت أضع أصابعي على التراب
فيسيل من بين يديّ صوت
صوت لا يشبه أحدًا
لكنّه يشبهني
حين كنتُ أفتح نافذةَ البيت
وألوّح للغيم
كأنه أبي يعود من الغربة
إن سألتني عن الجهات
سأرسم لكَ دائرة
فيها شجرة برتقال،
وركوة قهوة مرّة،
ودمعة تسقط على علمٍ قديم
لا يزال يُرفرف في حلم طفلٍ

يحسبُ أن الطائرة الورقية

سوف تعيدهُ إلى حيثُ بدأ

تعثّرتُ باسمٍ قديمٍ

فأزهرتْ شجرةُ البرتقال

منذ ذلك الحين

والثمارُ تهمسُ بما لا يُقال

فَسِيلَةُ الزَّيتونِ وطِفلُ القِيامَة

- إلى الشيخ الكنعاني- الذي لم ينسَ، ولم يسمح للغبار أن يعلو على الحكاية، فأورث الحنينَ وصيّةً، وجعل من صبره لغةً للقيامة.
- إلى الطفل الفلسطيني- الذي يمشي فوق التراب كمن يوقظ ذاكرةَ مدينة، يحمل حجرًا لا ليقاتل، بل ليبني، ويغني للزيتونة التي نجَتْ من المجزرة.

**

في الركنِ المنسيِّ من ذاكرةِ الأرضِ

تتنفّس أريحا،

تغفو على حجرٍ

وترتجف في الحلمِ من وقعِ الخيولِ الغريبة.

كانتِ الشمسُ تمشطُ شعرَ الحجارةِ،

وكانت الريحُ تأتي من الكرملِ

تواسي الأسوارَ المذبوحة.

غابَ الكنعانيُّون عن مرآةِ الماء،

لكن رائحتَهم بقيتْ

في عرقِ السهلِ،

وفي خشوعِ الزيتونِ المقطوع.

جاء الغزاةُ

كالغبارِ على اللغة،

خرّبوا الجدارَ،

وسكبوا دمَ الطينِ

على وجهِ المدينة.

هربَ الصوتُ

من بينِ الشقوقِ،

وتكسّرتْ في الحناجرِ

تواشيحُ الطفولة.

ثم قام الشيخُ

من بينِ الأنقاضِ،

عصاهُ من صبرٍ،

وصوتهُ من حجارةٍ عرفتِ التهليل.

قال لحفيدهِ:

«يا ابنَ قلبي،

لا تموتُ المدينةُ إلّا إذا نسيناها،

وإن مشتْ فوقها خطاكَ،

فهي تستيقظُ.»

سأل الفتى:

«وكيف نوقظُها؟»

قال: «ازرعْ حبًّا،

وابنِ جدارًا،

وأنشد لها...

فأريحا تعرفُ العاشقين!»

فمضى الطفلُ،

يجمعُ ما بعثرهُ الخراب،

ويبني سورًا صغيرًا

حول فسيلةٍ

خرجتْ من بينِ حنايا التراب.

لم يكن يدري

أن يدهُ تُقيمُ من الرمادِ

قيامةً صغيرة،

وأن صمتَهُ

كان يُنصِتُ إليهِ المنفيّون في الحنين.

جاؤوا إليه،

واحدًا فواحد،

كأنّهم يتبعونَ النشيدَ

في فمِ زيتونةٍ ناجية.

كبرَ الجدارُ،

وصار بيتًا،

والبيتُ صار حارة،

والحارةُ نَسَجتْ مدينة،

وأشرق وجهُ أريحا

من بينِ الكفوفِ المفتوحة.

فيا من تسأل:

كيف تُبنى الأوطان؟

ليست بالرمحِ،

ولا بالهدنة،

ولا بموائدِ القتلة،

بل بطفلٍ

يرفع حجرًا،

كأنّه يرفع صلاتَه،

وبجَدٍّ

يُذكّر الغيمَ باسمِ المكان.

الوطنُ

ينهضُ حين يقولُ الطفلُ:

«أنا هنا»،

فترتجفُ في صدرِ التاريخِ

قصيدةٌ

اسمُها: أريحا.

تَجاعيدُ الضَّوءِ على رَقَبَةِ الغَيمِ

«لا تُصاغ المنافي بالكلمات، بل بالفراغات التي تخلّفها الكلمات وراءها. وحين تغدو الأرض قشرةً طاردة، لا يبحث القلب عن بديل، بل عن ذاكرةٍ قابلةٍ للغرس. في هذا النص، لا يُقال شيء بصوته الصريح، لأن كل شيء قد قيل ذات وجع. ستقرأون وطنًا في هيئة حكاية ناقصة، وغربةً تتعلّم كيف تضع يدها على قلب اللغة دون أن ترتجف. افتحوا نوافذ التأويل... فالمعنى لا يسكن السطور، بل ينسرب من قبلها، أو يتكثف فيما لا يُقال.»

**

المدنُ التي تنامُ واقفة،

لا تحلمُ إلا بصريرِ المفاصلِ في أولِ الهبوط.

الظلُّ هناك يُصلبُ دون شاهد،

ويُدفنُ في جيبِ الغريب

كعملةٍ ملوّثةٍ بتأويلِ الجهات.

نسيتُ اسمي قربَ مفترقٍ من الرماد،

وتركتُ نعلي على العتبةِ خشيةَ أن تتبعه الجهاتُ إلى ما لا يشبه الديار.

ذات مساء،

علّقتُ صوتي على مشجبِ المواعيدِ المؤجلة،

ورأيتُ وجهي يشحبُ

في زجاجِ الذاكرة.

كنتُ أقتاتُ على الحنين كما يقتاتُ الزرنيخ على جسدِ زهرة،

أخيطُ الليلَ بخرائطِ ملغاة،

وأقرأ الصباحَ في تجاعيدِ الضوءِ على رقبةِ الغيم.

أشعلتُ لفافةَ الوقت،

نفختُ في رمادِ التفاصيل

بحثًا عن شظيةِ مكانٍ

لم يكتبْ نفسه في دفترِ الحضور.

الطرقاتُ هنا تتحدث لغةً أخرى،

والأبوابُ لا تفتح إلا بذكرياتٍ مشفّرة،

كأن المكان لا يقبلني

إلا إذا تنكّرتُ لصوتي.

كنتُ أتعلمُ كيف أرتبُ الملامحَ في جيبِ الغياب،

كيف أُهندمُ النسيانَ كأنه احتفال،

كيف أجلسُ القلقَ على موائدَ من صمتٍ معتق

وأقول له: كن أنت الخبز.

في المرآةِ المعلقةِ بين جفنين،

رأيتُ وجهي عالقًا بين زمنين،

واحدٍ يرشّ المطرَ على كتفِ ذاكرةٍ مبتورة،

وآخر ينحتُ يديه من رمادِ الغد.

صارت الجهاتُ مجردَ استعارة،

وصارت الكلماتُ أوشحةً ممزقة

لا تسترُ رعشةَ المدى.

أنا من يمشي في القصائدِ كأبكم،

ينظرُ إلى السطورِ كمن يتفقدُ أطرافَه بعد المعركة.

لستُ غريبًا بما يكفي،

ولا أنا ابنُ العنوان.

الذاكرةُ...

تلك التي ترتدي حريرَ الأرق،

تحملني كأنني خطأٌ طباعي

في روايةٍ كُتبت على عجل.

سأجمعُ من الوقتِ ما يكفي

لأصنعَ درجًا من المجازات،

أصعدُ به نحو الاحتمال،

نحو بابٍ لم يُغلق تمامًا

في ذاكرةِ السور.

ربما...

سيلتقطني ظلٌ

تعثّرَ بصوتٍ يشبهُ اسمي

ثم تردّدَ كمن يستعيد نغمةً

نسي أين سمعها.

يسألني: من تكون؟

فأشيرُ إلى رئتي وأهمس:

كنتُ أتنفسُ في فراغٍ لا يرى.

قُبلةٌ على فَمِ الجَحيمِ

حين تُغري المعرفةُ الجسدَ، ويهمس الجمالُ بما لا يُقال، تغدو الرغبةُ مرآةً مكسورة، ويصبح الخلودُ وهمـًا يُشترى.. بقبلةٍ على فم الجحيم.

في آخرِ الممرِّ الطويل،

كان ثمّة ضوءٌ لا يُشبه النور،

ولا يمتُّ للظلالِ بصِلة.

رأيتُه، واقفًا،

بجوارِ مرآةٍ تنزفُ وجوهًا نَسِيَت أسماءها.

يدُه المرتجفةُ تمتدُّ نحوَ وهمٍ مخلوقٍ من صهيلِ الحنين،

وعيناهُ مرآتانِ لنُبوءةٍ لا تُصدَّق.

كان يظنُّ أن المعرفةَ غابةٌ مفتوحة،

وأنّ الجسدَ كتابٌ قابلٌ لإعادةِ التأويل،

فمدّ أصابعه نحوَ امرأةٍ

انسلّت من سطرٍ شقيٍّ في ملحمةٍ تُقرأُ في الجمر،

وامتطى اللغةَ حتى حدودِ اللهفة،

لكنّه لم يسأل: من أنتِ؟

بل سأل: كم من السفن أطلقتِ،

ليغرقَ الرجال في ضوءِ غوايتكِ؟

هي،

كانت تقف على حافّةِ الشهوة،

تجرُّ عباءتها المصنوعة من صراخِ المدنِ الميتة،

شَعرها امتدادٌ لنهرٍ شربتْ منه الأساطير،

وفتنتها رُقيّةٌ تُداوي بها الجيوش جراحَ الهزيمة.

همستْ له بشفتين من زُبدِ الوهم:

«قَبّلني»

سأمنحكَ الفردوسَ المخلوقَ من رمادِ الكبرياء».

ولم يكن يعلمُ

أنّ كلّ قُبلةٍ تُمنَحُ تحتَ ظلالِ العهد،

هي سهمٌ مسمومٌ يغوصُ في الروح،

وأنّ مَن يُقايضُ الحقيقةَ بالرغبة

يُسلّمُ مفاتيحَ روحهِ لحارسِ الجحيم.

الشيطانُ لم يكن صاحبَ قرنين،

بل ظلًّا بارعًا في تقليدِ الصوتِ الداخلي،

وقد جلس بينهما،

يربتُ على كتفِ العالِمِ الضالّ،

ويقول له: «كلّ ما تحلم به لك،

فقط.. اكتب اسمك بالدم».

هكذا وقّع،

وهكذا بدأتِ الساعاتُ الأربعُ والعشرون

التي لا تشبه الزمن،

بل كانت مقايضةً سرّيةً بين المعرفةِ والرغبة،

بين الحلمِ واللذة،

بين روحٍ هائمة

ورغبةٍ عمياءَ تُصلّي في معبدِ الزيف،

وحين انتهى العيدُ،

وغابت هيلين(*) خلفَ ستارةِ النار،

بقي هو في الفراغ،

يصرخُ: «ردّوا لي روحي»

ردّوا لي جهلي الأول،

ذلك الذي كنتُ فيه بريئًا،

أصغي إلى النسيم،

(*) هيلين: هي المرأة الأسطورية، التي وردت في ملحمة الإلياذة للشاعر الإغريقي هوميروس.

وأكتفي بنجمةٍ لا تقولُ شيئًا».

لكنّ الصوتَ الأخير

لم يكن صوته،

كان ارتطامَ مرآةٍ انكسرت فيها الوجوه،

وكانت الريحُ تُصفّقُ،

كأنها تضحكُ من بشرٍ

ظنّوا أن بإمكانهم أن يُغلبوا الليل

بشمعةٍ مسروقة.

والعالم؟

العالم ما يزال يوقّع بدمه كلَّ صباح،

يسأل الشاشات:

«اصنعي لي امرأةً تشبه الآلهة»،

ويلهثُ خلفَ ظلٍّ يعرضُ عليه الخلود

مقابلَ أن ينسى اسمه..

أليس هذا هو الفقدُ الأقصى؟

أن نُباعَ كما تُباعُ الفصول،

ونُشترى بقبلةٍ

على فم الجحيم؟

مَقامُ السُّدَى

(ترتيلة للذين لا يُحسنون السؤال، ويُجيدون العطاء)

**

في دربٍ لا يشبه الدروب،
ينامُ الوقتُ تحت عباءةٍ من الغبار،
كأنّ الزمنَ خائفٌ من الشهادة،
كأنّ الخطوَ يُفتي بما لم تُنزّل به الكتب،
وفي الحارةِ التي نامتْ فيها النداءاتُ في الصدى،
كان ثمة ظلٌّ يمشي
بلا اسمٍ ولا مرآة،
يُفتّشُ في جيب التراب عن نبضٍ
لم يُفسده السوقُ ولا فتنةُ السعر.
هو «السُّدى»،
ذلك الذي لا يلتفت إليه النسّاج،
ولا يُثبّتُه النول،
ولكنه سرّ اللحاف.

هو خيطُ الفراغ،

الذي يسندُ المعنى من الداخل

ثم يُنسى،

ويُقال: هذه البُردةُ لا عيبَ فيها!

كان يمشي،

ويمينهُ مطأطئةٌ كأنها تُناجي الأرضَ قبل أن ترفعها،

ووجههُ مكسوٌّ بطينٍ من سورة الإنسان،

كأنّ سجدةً قديمةً بقيت فيه،

تحرسُهُ من زللِ التأويل.

هو لا يسأل،

لكنه يُكثّرُ من المرورِ قربَ المارين،

علّ الحياءَ يتذكّر

أن له أبناءً لم تُرَ وجوهُهم بعد.

ويحملُ في كفّه صمتًا ملفوفًا

كأنّه أثرُ دعاءٍ لم يُسمَع.

كأنّه في طريقهِ إلى كتابةِ صمتٍ

على بابٍ لم يُطرَق.

لو أنك اقتربتَ،

لشَممتَ في ثيابه رائحةَ الكساءِ

الذي التفَّ به إبراهيم حين قذفه قومه بالنار،

ولرأيتَ على كتفهِ بقايا صوفٍ

من خروفِ الفدية،

لكأنّه خُلق من أثرِ التضحية،

لا من طينٍ وحسب.

هو لا يُفكّرُ بالماء،

بل بما يمنعُ الماءَ عن العطاش،

ولا ينظرُ إلى رغيفٍ يسدُّ رمقه،

بل يسألُ:

كم عينًا جفّت قبل أن تصلَ إليه القسمة؟

لا يحملُ ميزانًا،

ولا يُراجعُ دفترَ الحسنات،

فهو يعلم أن الله

لا يُخزِّنُ الفضلَ في خزائن،

بل في جيوبٍ مثقوبةٍ بالأعمال التي لا تُعلن.

هو ظلّ الحديثِ الذي لم يُروَ،

وخلفيّةُ المشهدِ الذي استُثني من الآية،

ساجدٌ بغير موضع،

راكعٌ بغير صوت،

يُتقنُ فقهَ المروءة،

ويُخفي صلاته في هيئةِ تعبير وجه،

أو لفتةِ يدٍ تُعيدُ الميزان إلى القلب.

من رآهُ لم يعرفه،

ومن عرفهُ نسيَ أنّ له بيتًا.

هو ابنُ الطريقِ لا ليلَ له،

وحينَ يناديه صوتُ الاستغاثةِ في الآخرين،

يتوضأُ بالبذل،

ويصلي بنية «أن لا يعلمَ شمالُه ما أنفقت يمينه».

يسيرُ في الأسواق،

كأنّه لا يشتري،

لكنّه يشتري بكامل الثمنِ وجعَ الذين باعوا الصمتَ مرغمين.

يدفعُ بلا أن يُخرجَ مالًا،

ويهبُ بلا أن يُديرَ الرأس،

ويعلم أن الكفَّ حين تكونُ لله،

فإنها لا تتوسلُ شكرًا من المخلوقين.

في قلبهِ آيةٌ لم تُكتب بعد،

وفي جيبهِ عُمرٌ لا يريدُ أن يُستهلك في المباهاة.

تراهُ على حافةِ المشهد،

كما يُرى الهلالُ أول مرة،

لا يلفتُ النظر،

لكنّه يضبطُ مواقيتَ الصدق.

وإن سألتَه من أنت؟

أشار إلى الأرض،

ثم إلى السماء،

ثم قال:

أنا ما بينهما،

جُعلتُ واسطةً بين الخجلِ والحاجة،

أنا المقامُ الذي لا يُزار،

لكنه يُثمرُ في السر.

في نومهِ،

يحلمُ أن الملائكة

تضعُ على جبينهِ خرقةً من نور،

وفي يقظتهِ،

يخشى أن يراه من أحسنَ إليه،

فيظنَّهُ فقيرًا.

ليس له عُمرٌ موثّق،

ولا قصةٌ تُروى،

لكنّ العابرين كلّهم مرّوا من روحهِ ذات عوز،

ثم لم يعرفوا كيف ابتسموا،

ولا لماذا شعرت قلوبهم أنّها خفيفة.

وإذا ما جاءه صوتُ النشيد من بعيد،

ركع،

وقال:

اللهمّ اجعلني ممّن لا يُعرَفون إلا عندك،

وممّن إذا أكرموا

أنكروا أيديهم

وقالوا:

هي من عند الله..

ثم اختفى،

كما تختفي الشمسُ في عيونِ العميان،

لا لقصورٍ فيها،

بل لأن النورَ لا يُجبرُ أحدًا على البصيرة.

اِنْبِعاثٌ

في البدءِ
لم يكن للظلِّ اسمٌ،
ولا للوجوهِ مرآةٌ تُجيد التذكُّر.
كان الحجرُ يعلو على نبضِ التراب،
والزمنُ
يُدوِّنُ عارَهُ في كُتبٍ بلا أوراق.
في البعيدِ،
حيثُ يُقاسُ الحُلمُ بقطرةِ ماءٍ في راحةِ طفل،
تهجّى الغيمُ اسمه...
ونسى النهرُ أنَّه مات.

**

من تحتِ ركامِ الأيام،
تسرّبَ همسٌ
لا يعرفُ الخوفَ شكلًا...
ولا يعرفُ الطاعةَ ذوقًا.
حملته فراشةٌ

رسمتها يدٌ لا تزالُ تنبضُ
في جدارٍ لم يعد يسمعُ أحدًا،
والمقصلةُ غافيةٌ
على صوتِ أغنيةٍ لم تُغنَّ.

**

حين أغمضَ الطاغيةُ
عينَ المرآة،
رأى التمثالُ
كيف تتهشَّمُ السلطةُ
بلمسةِ سهمٍ لا يُرى.
السيفُ تحجّر،
والسورُ ابتلعَ حراسه،
والريحُ كانت تنقّبُ عن عِطرٍ
دفنوه في الزنازين.

**

من الأفقِ الذي لا يملكُ جهة،
ارتفعت الأقواسُ من لهب،

وكان ثمّة سهمٌ

يشبهُ الحنينَ إذا تأخّر،

أو الفجرَ إذا خافَ من النوافذِ المغلقة.

همسَ الرامي:

قُم، أيّها الحبّ،

افتحْ رسائلكَ القديمة،

تُشبِهُ القصائدُ حين تُكتَبُ

بدمعةِ أمٍّ لا تعرفُ النسيان.

**

سقطَ الصمتُ...

لا صدى،

لا قيود،

فقط العدمُ يتفكّكُ

كالكذبةِ حين تُعْرَضُ على النور.

وانشقّ الحجر،

وأزهرت البنادقُ

وردًا

يُشبه العارَ حين يُغتَسلُ بالندم.

**

الطفلُ الذي حملَ وردةً ذابلة،

لم يزرعها ليحيا،

بل ليتذكّرَ أن الجذورَ

أحيانًا تُولدُ من الرماد.

والعجوزُ الذي أضاعَ النجوم،

لم يكن أعمى،

بل كان يُنصتُ

إلى الضوءِ القادمِ من قلبِ الفراغ.

أما التي رسمتِ الفراشاتِ

في مِحرابِ الجُدران،

فقد كانت ترسمُ أجنحةً

لأمنيةٍ

لا تعرف كيف تسقط.

**

وحين انتهى السهمُ الثالث،
لم يكن العالمُ كما كان،
ولا كما سيكون.
صار الإنسانُ
قصيدةً تُكتَبُ كلَّ صباح
على جفنِ الذاكرة،
وبُندقيةً
فارغةً إلا من زهرة.

**

منذ ذلك الحين،
لم يأتِ أحدٌ يسألُ عن إيروس،
لم يعد يُرى في المرايا،
ولا يُكتبُ في الأساطير.
لكنّه، كلّما خافَ البشرُ من قلوبِهم،
تنهّدَ سهمٌ
في صدورِهم..
دون أن يُطلقهُ أحد.

نَشيدُ الكَواكِبِ قَبلَ الاِنفِجارِ الأَخير

ذات لحظةٍ لم تُدوَّن بعد
كان الضوءُ يتعثرُ بخُطاه،
كما لو أنّ أحدًا طوى الفجرَ ونسِي أن يفتحهُ من جديد.
وكان ظلٌّ طويلٌ
يتسلّل من بينِ جفنيّ الأرض،
يحمل في جيبهِ مرآةً مشقوقة،
ويهمسُ للصدى:
«لن تُهزَم الأممُ بصوتٍ، بل بنغمةِ صمتٍ متقنة.»

**

من علَّم الوردة أن تعتادَ رائحةَ الحديد؟
من أقنع الطينَ أن يبتسمَ وهو يُذبحُ؟
الحقيقةُ لا تُنطق،
بل تُخيطُ بفمٍ بلا لسان،
وتُرسل في طرودٍ دبلوماسية
باسم التنمية.

**

المدنُ التي لا تتثاءب،
غافلةٌ عن الليلِ الذي يحشو جدرانها بالرماح.
الغيمُ نفسه لم يعد أبيض،
بل صارَ مخزنًا للرصدِ والمراقبة،
يمطرُ شكًّا لا ماء،
ويزرعُ في التربةِ بذورَ الانقلاب.

**

النسرُ لا يطير الآن،
بل يتخفّى في هيئةِ «وسيطٍ إنساني»،
يحمل حقيبةً مملوءةً بالخرائطِ والرموزِ والفتائل.
وعلى الطاولة،
تنامُ خرائطُ قديمة،
تنتظرُ أن تُسحَب من تحتِها الطاولةُ ذاتُها.

**

الجنوبُ لا يزال يحفرُ قبوره بيده،
ويزرعُ فوقها راياتٍ ترفرف،
مكتوبٌ عليها:

«هذه أزمة.. وستمر.»

لكن الأزمة لم تأتِ كي تمر،

جاءت كي تُقيم،

تؤثثُ المكانَ بالحروبِ المؤجّلة،

وتُعلّقُ في الممرّاتِ لوحاتٍ

لعروشٍ سابقة.

**

في مَعبدِ الصمت،

يعزفُ أحدهم نشيدًا هجينيًّا:

كلمةٌ، طلقة، صفقة، قصيدة،

ويقول:

«نحن لا نهاجم، فقط نُعيد التوازن.»

لكنَّ التوازن كذبةٌ أنيقة،

كخاتمٍ في إصبعِ السفّاح.

**

الصدى في هذه الليلةِ

ليس انعكاسًا للصوت،

بل اعترافٌ هاربٌ من فمِ التاريخ.
والمرايا.. صارت ترفضُ أن تعكسَ شيئًا،
خشية أن ترى وجهَ الحقيقةِ مجدّدًا.

**

في النهاية،
سيولدُ طفلٌ بلا لغة،
يرسمُ بيدهِ المبتورةِ خريطةً للنجاة،
ويقول للريح:
«لا أريد وطنـًا،
بل اتجاهـًا لا يُباع.»
ويمضي...
وتمشي خلفهُ الأرضُ كلها،
كما لو أن الصحراءَ تذكّرت فجأةً
أنها كانت بحراً يومـًا.

عِطرٌ بلا وَطَنٍ

عطرٌ بلا وطن

على شُرفة الضوءِ...

كان الوردُ يفتح نايَهُ للعصافير،

ينثر أنفاسَه الأولى

كأنَّه دعاءُ الندى

في فجر الخلق.

وكان النسيمُ

يمشِّط خصلاتِه بخِفَّةِ عابرٍ

يخشى أن يُوقظَ الجمالَ من نومه،

وكانت الشمسُ

تستأذنُ الوردةَ لتشرق.

**

في البستانِ...

لم يكن الوردُ زينة،

بل كائنًا يشهقُ بالحياة،

كلُّ عِطرٍ فيه
وصيَّةُ أرضٍ،
وصوتُ أمٍّ
حين تُرضع طفلَها حكايا المطر.
في البستانِ،
لم تكن الرائحةُ عَرضًا زائلًا،
بل ذاكرةُ الشجرةِ،
وأنفاسُ الفصولِ الأربعة
تتلاعبُ في ثوبه كأغانٍ
تنزفُ من قلب الريح.

**

لكنهم اقتربوا...
بمقصٍّ كأنَّه قضاءُ الغفلة،
وقالوا: هذا جميل!
فلنأخذه إلى المزهريَّة!
ذُعِرَ الوردُ...
هلعًا لا يُرى في العين

لكنّه يُشمُّ في فقدان العبق،

ارتجف الغصنُ كأمٍّ

تُنتزع منها الرضيعُ

بلا صلاةِ وداع.

**

ذُبُولُه...

لم يكن انطفاءَ لون،

بل انكسارَ أغنيةٍ

فقدت مقامها.

صار العطرُ غريبًا،

يحومُ في الزجاجةِ

كروحٍ مكسورة

تبحث عن جسدها.

**

من يقطف الوردَ،

يقطع الحنينَ عن نبضه،

ويعلّق الجمالَ على جدارٍ بارد،

ثمّ يسأل:

لماذا لم تبتسم الوردة؟

**

الوردُ لا يموت حين يُقطف،

بل يُنفى.

والرائحةُ لا تغيب،

بل تهيمُ على وجه الغياب،

تبكي وطنها،

وتنامُ على ضوء ذاكرةٍ مبتورة.

**

أنا...

مررتُ بجانب وردةٍ في إناء،

خُيِّل إليَّ أنها تهمس:

«الحريةُ ليست أن تُحبني...

بل أن تتركني أعيش حيث وُلدت.»

فبكيتُ،

كما تبكي الطفلةُ حين يُسدل الستار

على مسرحٍ
نسيتْ فيه لعبتها.

**

ما العطرُ إن لم يكن حنينَ التربة؟
وما الجمالُ إن لم يكن حرًّا
كآهةِ عاشقٍ
لا يُترجمها إلا السكون؟
لا تَقْطِفوا الوردَ...
اتركوهُ لأغصانِه،
ففي الحريَّةِ
يزدهرُ العطر،
ويكتب الوردُ ديوانهُ الأخير
على صفحاتِ الهواء.

نَشيدٌ على جَناحِ غِياب

كلّ شيءٍ كان يمضي كما تفعل الريح في ورقةٍ لا تعرف لمن تسقط...

لكنّها جلست، لا لتستريح، بل لتستدرج الماء كي يبوح.

النهر ليس ماءً فحسب،

إنه سِفرٌ يتلوه الزمن على جسد الأرض،

حيث لا تراتيل... إلا لمن نسوا أسماءهم في المنفى.

تلمُّ يدها المبتلّة شيئًا من ارتعاش الضوء،

ترسم به خطًّا لا يُرى،

من شرفة الطفولة حتى ضفّة النسيان.

ثم تهمس للظلّ الواقف خلف كتفها:

«أعرفُ هذا العصفور...

لقد خرج من شقّ ذاكرةٍ قديمة،

كان يغني حين كانت الأرضُ تضحكُ بقمحها».

لا تتحدث...

اللغات سقطت منها،

تشقّقت مثل فخّار عتيق تحت المطر،

لكنّها تحفظ نبرة الغيم عندما يهمسُ لقمح القرية،

وتعرف شكل النافذة التي كانت تطلّ منها على «الغد».

الغد...

ذلك الذي ارتدى قبعةَ جنديّ، ومضى دون وداع.

ليس حنينًا ما يسكنها،

بل شجرةٌ مُقلوعة نبتت أغصانها في الهواء.

رأت المدنَ تتبدّل كأنها مرايا لا تثبتُ على وجه،

واختبرت قسوة المرايا...

عندما تعيد وجوهنا ناقصةً من شيءٍ لا يُقال.

من بعيدٍ، جاء طائرٌ لا يصدح،

كان يحملُ في منقاره ريحًا من التراب،

وحين حطَّ قربها،

أحسّت بأنّ قلبها صار قابلاً للحنين من جديد،

لكنها لم تبكِ...

فالدمع كان قد وُضِع في قناني الزمان،

وتُرك على رفوفٍ لم تعد تصل إليها.

تذكّرت كيف كانت تهرول في زقاقٍ ضيّق،

حاملةً حقيبة من ورق،

فيها قصاصة حلم،

ورغيفٌ من قمحٍ كانت أمّها تخبزه بقلبٍ نابضٍ من دعاء.

كان الحنينُ آنذاك لعبةً تسرقها من الأشواق،

تضعه تحت وسادتها، وتنام كأنّ الغد لا يعرف الرحيل.

أدارت وجهها للنهر،

فرأت ملامح لم تُولد بعد،

وجوهًا تُطل من نوافذ لم تُبْنَ،

ويدًا تشيرُ نحو الشرق...

نحو شجرةٍ من سحابٍ ترضعُ من غيمٍ بعيدٍ أغنية.

هي الآن هنا...

لكنها لم تغادر هناك.

هي تُقيم في ضفّتين،

إحداهما تبتسم بدمعٍ قديم،

والأخرى تكتفي بأن تسمع رفّة جناحٍ لا يظهر...

جناح يشبهها حين تنام الحروف على لسانها،

ويستيقظ الحلم بلا عنوان.

ما زال في صوتها نداءٌ لم يُفسَّر،

وفي عينيها طرقات لا يعرفها الزمن،

لكنّها تمضي...

تمضي كمن يخيط ثوبًا للغياب،

وينتظر أن يلبسه أحدُهم ذات حلم،

على حافة نهرٍ لم يُكتشف بعد،

وفي حضن وطنٍ لا يُقاس بالخريطة.

الطائرُ طار...

والماءُ مضى كعادته...

لكن ظلَّ على الضفّة أثرٌ...

أثرٌ يشبه بداية قصيدةٍ لم تُكتب.

نُدبَةُ الضَّوءِ في خاصِرَةِ الصَّباح

تسيرُ الغيومُ بثيابٍ ممزّقة،
كأن أحدًا ما
سرق من حقائبها اللونَ
والرغيف،
ورمى في جيبها نُدبةً من ليلٍ قديم.
على حوافّ الوقت،
كان ظلٌّ صغيرٌ
يجرّ حقيبةً من الريح،
ويخطو بين حروفٍ لا تُقرأ،
كأنه يبحث عن طريق
نُقشَ بالحبرِ لا بالخرائط.
تعثّر بالعدم،
لكنّه أصرّ أن يُقنع الغبارَ
بأنّ الخطوة ليست لعنة،
وأنّ الوقوف

لا يليقُ بمن وُلد من طينٍ فيه جذوةُ نار.

في المكان الذي لا يُسمّى،

حيثُ تتكئُ الأشجار على صبرها،

ويتهجّى الحجرُ معاني الصمت،

تكوّنت في الريح ملامحُ مخلوقٍ

يشبهُ القصيدة:

هشٌّ من الخارج،

لكنّ في جوفهِ

سيفٌ من نارٍ لا يُرى.

كلّ شيءٍ من حوله

يُغري بالسقوط:

الزمنُ ثقيل،

والمساءُ موحش،

والنوافذُ تروّجُ للنسيان كأنه خلاص.

لكنه اختار أن يربّي النور

في عينيه،

كما تُربّى الشجرة في حوضٍ من الغياب،

يسقيها بالحبر،

ويحرسها بسهرةٍ طويلةٍ

مع الكتب التي لا تفهم نومها.

كان في أعماقه

ترسٌ لا يراه أحد،

وسؤالٌ لا يخبو:

«هل للغبار أن يهزم الجذور؟

وهل للعتمة أن تُقنع البذور

أن لا تصعد؟»

هو لم يجب،

بل كان يخطو كأن الطريق هو من يتعلّم منه،

وكان كلُّ عَثرٍ يُعيدُ ترتيب الريحِ في جسده،

كأنّ الانكسار

درسٌ في الاتزان.

رآه النورُ،

فانحنى له،

وقال:

«لم أرَ من قبل

من يجعل من الصمتِ جناحًا،

ومن المجهولِ خريطة،

ومن الغيابِ نبوءة حضور.»

ذلك الذي لم نعرف اسمه،

لكننا رأيناه يمرُّ ذات حلم

في دهليز الضوء،

كان يخبّئ في كفّه

ما يشبه المستقبل

حين يُكتب لا كما يُقال،

بل كما يُقاوَم.

وإذا سألتَ أين ذهب؟

فابحث عنه في وجوهٍ

لا تزالُ تقاومُ النعاسَ

بقراءةٍ واحدة،

وفي خطواتٍ تمحو آثارها

كي لا يُكتشف الطريقُ إلا من يستحق.

مِرآةُ الغِيابِ

في مدارٍ خامس،
كان الهواءُ يُخفي نَفَسهُ
كي لا تُصابَ القصائدُ بالعدوى،
وكانت الظلالُ
تُديرُ حربًا باردةً
ضد أجسادٍ بلا سقف.
العالَمُ
مقبرةٌ مؤجّلة،
يَصحو على نشيدٍ من الرماد،
تخذله الأزمنةُ،
ويُعيد تشكيلَ خريطته
من خطوطِ الجوع.
الوجوهُ
كواكبُ مهجورة
تدورُ بلا جدوى

في فراغٍ يُشبه الصلاةَ المعلّقة.

الأمهاتُ

تلدنَ بناتٍ من زجاج،

والأطفالُ

يحفرونَ أسماءَهم

على سطحِ الماء،

ثمّ يغرقونَ في صدى حكاياتهم.

مآذنُ من صفيحٍ

تؤذّنُ للصمت،

والنوافذُ

تعكسُ خطى الراحلين

كما لو أن الحنين

مرضٌ وراثي

ينمو في أعماق الصدى.

القصائدُ أيضًا

ارتجفتْ على عتبةِ البوح،

تُداري نبضَها

بأقنعةٍ من ورقٍ نازف،

وصار الشعراءُ

رُعاةَ ظلالٍ

يذبحونَ اللغةَ

على مذابح النسيان.

**

نحن،

زُوّارُ حزنٍ مقيم،

نعبرُ شقوقَ الوقت

بحذاءٍ مثقوبٍ من المعنى،

نقتاتُ على الأملِ

كمن يأكلُ

قصيدةً مشطورةً

بحدِّ الغياب.

مِرآةُ الظَّنِّ

ليس كلُّ ما يُكسرُ أمامَكَ،
كانَ يستحقُّ المطرقة.
ولا كلُّ يدٍ تمتدُّ نحوكَ،
تنوي سرقةَ الضوء.
تلكَ الأصواتُ التي تعلو في الرأسِ
حين نظنُّ أن الصمتَ مؤامرة،
هي ذاتها التي تجهلُ
أن القلوبَ قد تهبُنا فتاتَ النور
ونحن مشغولون بتقليبِ الظلال.
كلُّ قرارٍ في العتمةِ
يرتدي هيئةَ سهمٍ نادم
حين يشرقُ عليه النور.
تأملْ،
كم مرةً رمينا الحصاةَ في الماء
فارتجفَ قاعُ النهر

وأقسمنا أن الوحشَ يسكنُه!

وكم بابًا طرقناه

كي نُدين المارّة

دون أن ننتبه

أن الملامحَ تغيّرها الرياح،

لا النوايا.

الذينَ يملكونَ نصفَ الحقيقة

يقتلونها حين يكملونها بالشك.

هل جرّبتَ أن تنظرَ خلفك

بعد أن تهدمَ جسرًا؟

ثم تُدرك أن من كان يعبرُه

هو ظلُّك...

نحنُ لا نخسرُ الآخرين فقط،

بل نخسرُ نسخًا أنقى من أنفسِنا

حين نتعجّلُ الحُكم،

ونحكمُ بأحجارِ الريبة

على شرفاتِ النوايا البيضاء.

الحياةُ ليستْ ساحةَ معركة،

بل أحيانًا

مجردُ مقعدٍ في الانتظار،

يجلسُ عليه أحدُهم

ليشاركك صمتًا،

أو يُقاسمك شيئًا لم تطلبه،

ويغادر...

بلا لفتةِ عتاب،

ولا انتظارٍ لاعتذار.

تذكّرْ:

ليس كلُّ ما نراهُ يُخبرنا الحقيقة،

وليس كلُّ ما لا نراهُ

يبقى في الخفاءِ إلى الأبد.

تأنَّ،

فالأشياءُ تنكسرُ فينا

قبل أن تنكسرَ منّا.

أمكِنَةٌ تُقامُ ولا تَسقُط

في الرقعة المطويّة من الزمان،

حيث لا يمرُّ الضوءُ إلّا خائفًا،

تعثّرتُ بخارطةٍ لا تعرف وجهها،

وبأرضٍ تمشي فوق ساكنيها

كأنهم أحلامُ حجارةٍ لا تفيق.

كان الهواءُ هناك

يُربّي في الرئتين صمتًا لم يُدرَّب على الكلام،

وكانت الجدرانُ

تُصلّي دون كهنة،

وتبكي دون ماضٍ.

**

في ذلك المكان،

لم تكن الخطى تُفضي إلى أبواب،

بل إلى ظلالٍ

تقتفي أثر نفسها.

وكانت العيون

تشرب المعنى قطرةً قطرة

ثم تنساه.

**

وجدتُهم...

لا أحدَ فيهم يتذكّر ملامحه،

لكنّهم جميعًا

يُشبِهون القصيدة قبل أن تُكتب،

عاطفيين بلا أسباب،

كالحُبّ الذي ينبت في المنفى،

ثم يموت في الذاكرة.

**

في الزوايا،

نُقِشت حكاياتٌ

بأبجديةٍ لا تُقرأ،

كأنّ الزمنَ حين أرهقته المعاني،

ألقى بنفسه من أعالي اللغة،
واكتفى بأن يكون نبضًا.

**

وقفتُ أمام ما بدا لي مرآةً مكسورة،
لكنَّها لم تعكسني،
بل أظهرت جسدًا
يرتدي لحظةً لا تسبقها لحظة
ولا تتبعها خطوة.

**

هل نحن ما نتذكره؟
أم ما ننساه؟
هل الحياةُ امتدادٌ زمنيٌّ
أم مجرَّد ومضةٍ
تتكرر في قميصٍ مختلف؟
هل نحن نحن
حين لا أحد ينادينا باسمنا؟

**

هكذا عرفتُ...

أنَّ الحُرّيّة

ربما تكون في نسيانِ الباب،

لا في الخروج منه،

وفي الانصهارِ في لحظةٍ

لا تسأل عمّا كان،

ولا تخافُ ممّا سيكون.

**

وفي غفلةِ وهم،

ابتسمتُ...

لا لأنّ شيئًا تغيّر،

بل لأنّني

أخيرًا

لم أكن بحاجةٍ

إلى أن أفهم.

**

ربما كنتُ عابرًا،

ربما كنتُ فكرةً غافلة،

وربما لم أكن هناك أصلًا...

لكنّني حين مشيتُ خارج الحكاية،

تركتُ خلفي سؤالًا

يرتّب الأشياءَ في رأسي:

أيُّنا كان يرى الآخر؟

وأيُّنا كان يحلم؟

ومن كتب من؟

صُعودٌ إلى البَياضِ

أحمدك،

يا من فتحتَ لي بابًا في الغيب،

ومددتَ من غيمك سلَّمًا،

فعلوتُ،

كأني الدعاءُ وقد صار جناحين.

**

أحمدك،

يا من ناديتَني بصمتٍ

فأجبت،

وبكيتُ،

دون أن أدري أكنتُ أنا...

أم ظلّي يسيرُ إليك؟

**

يا ربّ،

ما الحَجُّ؟

أهوى سفرٌ؟

أم رجوعٌ من الشكِّ إلى يقينكَ العميق،

الذي لا يُرى،

لكنه يملأ القلب حتى لا يبقى فيه متّسعٌ لنبضٍ سواك؟

**

طفتُ...

لم أدرِ:

أكنتُ أطوفُ بالحَجَر،

أم الحَجَرُ كان يطوفُ بي،

ويزيلُ عني ما التصقَ من غبارِ الظنِّ،

وأوهامِ الجهات؟

**

رأيتني هناك،

لا كجسدٍ،

بل كنيةٍ كانت تبحثُ عن معناها،

وكأنني سُرِّحتُ من قيدِ اسمي،

فانتميتُ إلى نورِك الذي لا يُحدّ..

**

وفي عرفات،

خلعتُ اسمي،،

وكانت الأرضُ تسبّحُ

بلغةٍ لا تحسنها الحناجر،

وتنطقُ بعطشٍ

لا يرويه إلا الغفران.

**

كنتُ أراكَ

في انحناءةِ القلبِ عند الندم،

في شهقةِ المذنب،

في خفوتِ الغائب،

في قُبلةِ العائدِ إلى يقينِه المفقود.

**

أحمدك،

لأني لم أصل،

بل تُركتُ لأتوه فيك،

وهذا هو الوصول.

**

ألقيتُ روحي في وادٍ

لا زرعَ فيه،

فأنبتَ فيها المعنى،

وسقيتَها بفيضٍ لا يُسمّى،

ولا يُحدّ،

ولا يُفسَّر.

**

كنتُ أدنو من البيت،

لكني كنتُ أدنو من غيبكَ الأعظم،

من السؤال الذي لا يُجاب،

إلا إذا بُكيت.

**

أحمدك،

لأني لم أعد كما كنت،

بل كما أرَدتَ أن أكون:

فراغًا مملوءًا بك،

وصوتًا يتردّد فيك،

ولا يصمت.

على عَتَباتِ النُّورِ

وقفتُ على صمتِ المناسكِ
لا زادَ إلا دمعةُ الروحِ في محبرةِ الكعبةِ،
ولا ظلّ إلا نَفَسُ الحنينِ تحتَ إزارِ الغيم،
كأنني كنتُ غبارًا يسيرُ في سطرِ الدعاء،
ثم ناداني اللهُ باسمٍ لم أكن أعلمه...
فعدت.
يا من نثرتَني في رُبى عرفاتِ
كما تنثرُ الريحُ أوراقَ الشوقِ في دفترِ الزمن،
انكمشَ الجسدُ تحت بياضِ الإحرام
حتى صارَ فكرةً طاهرةً،
أو ظلاً خفيفًا لسجدةٍ على صخرِ النور؟
أشهدُكَ يا الله...
أنني حين سَعيتُ بين الصفَا والمروة،
كنتُ أُركضُ في متاهاتِ قلبي،
أبحثُ عن هاجرَ في داخلي،

أسمعُ صدى ماءٍ لم يُولد بعد،
وسمعتُ نداءً لا يُرى، يهتف في أعماقي:
«أسرِع... فإن مَن عبرَ إلى اللهِ بحُبّه، لا يُضيَّع.»
عند الجمراتِ،
ما كنتُ أرمي حجارةً في الفراغ،
كنتُ أُخرجُ من نفسي أوهامها،
أنزعُ وجوهَ الطينِ القديمة،
أكسّرُ أصنامي بأصابعٍ من نور،
وأبتسم.
في طوافِ الوداع،
لم أُودّع البيت، بل ودّعتني الدنيا،
وعدتُ منها مسلوبَ الهوية،
إلا من ختمِ المحبةِ على جبيني،
ورعشةٍ تهمس:
لقد عرفتَ الطريق... فلا تضل.
شكرًا لك، أيها الرحمن،
يا من جعلتَ من قلبي كعبةً صغيرة،

تطوفُ فيها الأسرارُ كما تطوفُ الملائكة،

وتُقامُ بها الصلواتُ في صمتِ التأمل.

شكرًا لك، يا الله

يا من حملتني على جناحِ الدعاء

وسافرتُ بي إلى ذاتي... عبرك.

تَجَمَّلي بالحَياءِ

في فجرٍ لم تلمسه المرايا بعد،
كانت تمشي على الحافة،
تُدوِّن صمتها في هواءٍ لا يثق بالضجيج.
كلما مرّت، انكمشت الظلال،
وتدلّى القمر من كتف الغيم خجلاً.
في كفها الأولى،
ورقة لا تبوح بما كُتب،
وفي الأخرى، مفتاح بابٍ
لا يُفتح إلا من الداخل.
الريح تعرف اسمها،
لكنها تهمس به،
خشية أن تُخلّ بتوازن الحقول.
تلبس من الضوء طيّاته البعيدة،
تخبّئ صوتها في صدى العتمة،
تتنفس المعنى من شقوق النوافذ،

وتُهدهد خطواتها كما تفعل الأرض

حين تمشي عليها صلاةٌ خفيّة.

لم تكن مرئية،

بل مقروءة في عين زهرةٍ لا تذبل،

وفي وقار جدولٍ لا يُسابق جريانه.

حين تتكلّم،

ينحني المعنى كي يصغي،

وحين تسكت،

تتشكل اللغة من جديد.

هي لا تطرق الأبواب،

بل تقف على العتبة بين الظهور والغياب،

تختار أن تكون نداءً لا يُفسَّر،

كغيمةٍ تحفظ المطر لنبتةٍ

لم تولد بعد.

وحين يشهق الزمن من حولها،

تبقى ساكنةً كصمتٍ له مقام،

وكأنها تعرف أن الأجراس

لا تُوقظ إلا من لم ينم في حضن السكينة.

في المدن التي احترقت أعينها بالمرايا،
مرّت بخفة الغائبين عن الولائم،
وتركت أثرًا على الزجاج،
يشبه ارتباك الضوء حين يلمس صدقًا نادرًا.
ليست طينًا طريًّا لتُشكَّل،
بل طقسٌ قديمٌ،
نسي النحاتون كيف يُعاد.
قالوا: لا نراها!
لكنّ الندى كان يكتب اسمها
على كل نافذةٍ عند الفجر،
وكان الورد يُؤجل تفتحه
حتى تمرّ.
هي لا تشبه «الآن»،
ولا تحاكي «الجميع»،
بل تشبه ما لا يُشبه،
وتسير في النور كما تسير الفكرة
في عقلٍ لم يخنه الحياء.

حينَ تَنظُرينَ إِلَيَّ...

حينَ تنظرينَ إليَّ،
تتوقّفُ الساعاتُ عن الدوران،
وتُطفئُ الشمسُ ضوءَها،
كأنّ وجهَكِ أوصى النهارَ أن يرتاح...
حينَ تبتسمين،
يتفتّحُ الوردُ في قلبي،
كأنّ الشوقَ
أمضى عمرَه يبحثُ عنكِ...
ثمّ وُلدتِ.
يا أنثى لا تُشبهُ إلاّ القصائدَ التي
لم تُكتَب بعد،
ولا تُقرأ إلّا وهمسًا.
كلماتكِ؟
عطرٌ يسكنُ الذاكرة،
وخطواتُكِ؟

أنغامٌ لا يعرفها سوى قلبي.

أُقسمُ...

أنّي حين أراكِ،

أرتّبُ في رأسي كلّ الحروف،

وأعقدُ نيةَ الجنون،

فلا أعودُ شاعرًا...

بل مجنونكِ.

تعالي...

كوني لي وطنًا،

أستظلُّ بعينيكِ إن اشتدّ الحنين،

وأنامُ على هدبكِ

إن قَسَتِ الدنيا عليّ.

أُحبّكِ...

بصوتِ الوردِ حين يهمسُ للمطر،

بصمتِ البحرِ حين يُخفي في جوفهِ كلّ الأسرار،

بجنونِ العاشقِ حين لا يكفيهِ العمرُ ليقول:

أنتِ... كلُّ العمر.

لا أَنْتَمي إلّا إلَيكِ

كأنّي خرجتُ من ضلعِ الوقت،
أحملُ صريرَ الأبديةِ في نَفَسي،
وأكتبُكِ...
على صفحةِ الغيم،
بمدادٍ خُلطَ بصبرِ النبوات.
لا أنتمي للأمكنةِ العابرة،
ولا لخطى العابرين.
أنا ابنُ الظلالِ التي لا تستقر،
وحفيدُ الحنينِ الذي لم يولدْ بعد.
حين يُنكرُ النبعُ ماءه،
وتفرُّ الجذورُ من تحتِ شجرةٍ بلا ذاكرة،
أرجعُ إليكِ...
صوتًا في نايٍ مكسور،
وصدىً في فمِ الكهف،
وغباراً يبحثُ عن اسمه في زفيرِ الرياح.

أنتِ النداءُ الأول،

الذي ما زالَ صداه يهمسُ في كياني

«كُن كما كنتَ لا تبرح الباب».

وأنا لا أبرحُ.

أُغلّفُ ضياعي بورقةِ توت،

وأحرسُ رمادي من نشيدِ الأسطورة.

يا مَن لستِ جهةً،

ولا خريطة،

ولا طيفًا في مرايا الفصول،

لكنّكِ النزفُ الذي يُعيدُ ترتيبَ دمي،

كلّما شاخَ الهواءُ في رئتي.

لا أنتمي إلا إليكِ،

حين تُطفئُ النارُ ما تبقّى من يقيني،

وتحملني الريحُ إلى ذاكرةٍ لا تعترفُ بي،

أراكِ...

في خرائبِ المعنى،

وفي لفتةِ تمثالٍ نسيَ لماذا صُنِع.

أنتِ هويّتي حين تُمحى الهويّات،

ونجمي الأخير حين ينكسرُ الفلك.

أنتِ في غيابِكِ حضورٌ،

وفي حضوركِ...

ألف غيابٍ لا يُطاق.

يا أنتِ،

أيّتها اللامرئيةُ في خطِّ الحياة،

يا من لا تُحدِّكِ المرايا،

ولا تُرهقكِ الأسماء:

لا أنتمي إلا إليكِ...

ولو كُسرتْ قواربُ اللغة،

وغاصتْ قِممُ المعنى في العدم.

المحتويات

مقدمة	5
مفاتيح لا تصدأ	9
مدنٌ لا تلدُ أسماءها	15
ظلّ السؤال	23
نَبضُ الرِّيحِ في جدارِ الوهم	31
وشم الذاكرة على شاطئ الندم	37
حين يُزهِر العقلُ في كفِّ الإنسان	40
هامشٌ على دفترِ الغيم	45
نجمة اللازمان	53
ظلي الذي خاصمني	57
على هامش الريح	61
حين ينسى الطريق نفسه	66
سماءٌ لا تتّسعُ لظلّي	69
حين يُزهِرُ الفناء	75
رفّة على زجاج الصمت	82
حين أضاعت السيوف ظلّها	87
بقيَ في الساحة ظلٌّ انتظار	91
ظلّ القُبّة	95
إلى حيثُ لا أكون أنا	98

حين تثمر الأرضُ الوعي	104
على مرمى برتقالة من القلب	108
فسيلة الزيتون وطفلُ القيامة	112
تجاعيدُ الضوءِ على رقبة الغيم	117
قبلةٌ على فم الجحيم	121
مقامُ السُّدى	125
انبعاث	132
نشيدُ الكواكبِ قبل الانفجار الأخير	137
عطرٌ بلا وطن	141
نشيدٌ على جناح غياب	146
نُدبةُ الضوء في خاصرةِ الصباح	150
مرآةُ الغياب	154
مرآةُ الظنّ	157
أمكنة تقام ولا تسقط	160
صعودٌ إلى البياض	165
على عتبات النور	169
تجمّلي بالحياء	172
حينَ تنظرينَ إليّ...	175
لا أنتمي إلا إليكِ	177

بين صفاء اللغة وثراء الموضوع

يتميز النص الشعري، في تجربة الشاعر سمير اليوسف، بلغة شعرية ثرية وصافية في آن، على صعيدي المعجم والبنى اللغوية.

حتى لَيمكنَ للمتلقي الجاد أن يجد في لغته الشعرية من مقومات الجمال ما يثري الموضوع الشعري، ويميزه عن سواه من تجارب وأصوات شعرية عاصرها وأفاد منها.

ورغم، كل ما يمكن أن يقال في لغة سمير اليوسف الشعرية، فإنه لا يعتمد في نصه الشعري على هذه اللغة وجمالياتها فحسب، بل يجتهد في موضوعاته وينوعها ويجدد فيها.

وما يميزه في تجربته الشعرية، أنه لا يكرر موضوعاته الشعرية ويبحث عما هو جديد وما يستدعي الحوار، حتى إنّ قراءة نصه الشعري تثير الكثير من الأسئلة وتوسع فضاء التلقي.

إننا بإزاء محاولات شعرية جديرة بالمتابعة وتوقع أن يكون لها حضورها في الفضاء الشعري العربي.

حميد سعيد

دار الخليج للنشر والتوزيع
الأردن: عمّـــــان، العبدلي تلفاكس: 35 98 935 77 00962
daralkhalij@gmail.com daralkhalij1998 daralkhalij
تتوفر أصداراتنا على:
GET IT ON Google play
9 789923 018965

Designed By S. Alyousef